
يوم تستشرى الأساطير
محمود حنفى

يوم تستشرى الأساطير
وقصص أخرى

الطبعة الأولى ١٩٩٢

تصميم الغلاف والرسوم الداخلية
للفنان الدكتور فاروق وهبة

محمود حنفى

يوم تنتشر الأساطير
وقصص أخرى

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية

يوم تستشرى الأساطير

وقائع اليوم الأخير فى حياة كل من سالم وامين .
اللذين ولدا على مشارف اربعينات هذا القرن على ارض مصر المحروسة . وجمعهما عبر الخمسينيات صبا عامر بالأحلام الخضراء .
ولكن الستينيات فرقتهما بعد أن أجهضت أحلامهما وأنزلت بهما عقابا على ذنب لم يقترفاه .
وها هما يلتقيان بعد الشتات - بتدبير مصادفة هازلة - فينزع كل منهما ثوب واقعة المزرى فيشرعان معا في سباحة وسط بحر الأساطير

وكان يوم التقيا أن هبت الريح وقصف الرعد وانهمر مطر غزير من السماء . وكان ذلك فى أول صباح لما كان سالم يعبر بسيارته مفترق الطريق عند المكس لينفذ الى الطريق الضيق الذاهب الى العجمى والصحراء الغربية . وكان شارد الفكر وهو يقول لنفسه حينذاك : « الآن تخلصت من كل شئ بلا عودة على الاطلاق » ، ولكنه شاهد أمامه في نفس اللحظة ، ومن خلف زجاج السيارة الأمامى : طيفا يتمايل وسط الغبش الخارجى ثم يقفز متكوما علي الارض بجوار الطريق . وعند ذلك ، ومع صحوته من شروده ، أدرك سالم أنه قد صدم شخصا كان يمر من أمامه ، فأوقف السيارة على عجل وبلا أى تفكير ..

وكان المطر قد توقف ، والطريق الذى خرج اليه سالم كان ممتلئا بفجوات المياه ، ساكنا وموحشا فى تلك الساعة من الصباح ، يظلله الغيم بلون رمادى . ودهش سالم دهشة بالغة وهو يتقدم تجاه الرجل الذى صدمه منذ لحظات فيراه ينهض من كبوته وحده وقبل أن يدركه ليقدم له العون . وأول ما شاهده سالم وسط دهشته البالغة ، كان جسما ضئيلا

لرجل ذى قامة شديدة النحول ، منهمكا في تنظيف ملابسه الرثة المبتلة بفعل المطر وأثر السقوط .

ولم تقتصر مفاجأة الصدفة مع سالم على هذا الحد ، أذ أن صوتا في داخله كلمه وهو يخطو خطواته تجاه الرجل الذى صدمه قائلاً إنه مقبل على ملاقاة شخص يعرفه . وقد تحقق ذلك بالفعل ، اذ بينما كان يستفسر من الرجل عن حالته ، رفع الرجل رأسه ليؤكد له سلامته ، فإذا بالعينين تلتقيان فترتسم على الوجهين دهشة المفاجأة . ورأى سالم وجهها حزينا لم يكن بوسعه أن يخطئه ، وإبتسامة عامرة بالتسامح كان يعرفها خير المعرفة .. فإذا به يهتف دون تردد :

« شيخ أمين ؟؟ »

وردد الرجل بدماثة قائلاً : « ســـالم .. »

وكان سالم أسير دهشة وإنفعال ومفاجأة ، ومشاعر أخرى متلاطمة ، فإذا به يميل على أمين الذي كان غارقا فى اضطرابه وحيرته .. وكان أن تعانقا عناقاً حارا وطويلاً وصادقاً وإن لم يخل من إرتباك المفاجأة ..

وسأل سالم أمين قائلاً : « ما الذى بك إلى هذه المنطقة النائية في هذا الوقت المبكر ؟؟ »

وأجابه أمين قائلاً : « كنت أمضى الليل عند صديق يسكن هنا .. »

وتلعثم قليلاً ثم أستطرد : « لذلك حكاية يطـول شرحها علي أى حال .. »

قال سالم فى أندفاع ونخوة : « سوف ترويها لى بالقطع .. وإن كنت أود أن أسألك في البداية عن وجهتك .. »

ومط أمين شفتيه الرقيقتين وأجاب : « ليس الى أي مكان .. »

فتهلل سالم فرحا وقال : « إذن تأتى معي بلا نقاش .. »

وسأل أمين بخجل : « إلى أين .. ؟ »

فأجاب سالم وهو يدفعه ناحية السيارة : « الى حيث ألقت ، هل تمانع .. ؟ »

وكان أن ركب الاثنان سيارة سالم وهما يضحكان ، وكل منهما منشرح الصدر لأسباب تخصه وحده ..

وتوغلا فى الطريق الضيق المتعرج بلا عوائق ، يجذبهما قدر هزلى ذو نزعة سوداوية مستبدة ومتسلطة . وأنفتح الطريق أمامهما كالرحم اللانهائى الذى يتوق اليه المعذبون في الارض . لغرق كل منهما في أحلام عدم متسام لا تنال منه ومضة أمل من آمال البشر ..

ذلك ما حدث عند لقاء سالم وأمين . ومع أن اللقاء كان حافلا وجياشاً .. إلا أنهما ، وعقب إنطلاقهما بالسيارة في الطريق الضيقة المتعرجة التى تحف بها الصحراء من الجانبين ، وتظللها الغيوم القادمة من جهة البحر ، وتعربد فيها رياحه مشبعة برائحة الملح والأعشاب ، لم يتبادلا كلمة واحدة طوال الفترة التى نهبت فيها السيارة الطريق نهبا ...

ولا كلمة واحدة ..

حتى إذا أوقف سالم السيارة فى بقعة قفر ، نطق أخيراً وقال :

« يسمون هذا المكان أبو يوسف ... »

وكانت نبرة صوته باهتة ، فيها سأم وملاله ..

وحين غادر أمين السيارة في أعقابه ، وجد نفسه وسط صحراء جرداء إلا من بعض بيوت المصطافين المهجورة والمتناثرة فوق بساط الرمال بصورة ليس فيها أى تناسق أو نظام . وقد التفت الى الخلف مرة لمشاهد شجرات تين جافة عجفاء تعصف بها الريح ، وأكوام من الحجارة ملقاة في أهمال ، ولكنه حين عاد الى موضعه من جديد بدهته صفحة البحر الزرقاء المتكسرة والمصطخبة على البعد القريب . وشاهد الزبد كثيفاً وهو يندفع الى الرمال التى كانت سرعان ما تمتصه فى باطنها السحيق ..

وهذا هو تاريخ حياة سالم وأمين منذ أن تعارفا للمرة الأولي حين كانا صبيين وحتى ذلك اليوم العصيب الذي التقيا فيه ..

لقد ولد كل منهما لأسرة مصرية فقيرة من تلك الأسر التى كانت مصر تذخر بها ولا تزال . غير أن أبويهما كانا من الرجال الفقراء الطيبين الذين لا يخلون من طموح شريف مشروع ، فقررا أن يلحقا أولادهما بالمدارس أملا فى أن يحقق الأولاد حين يكبروا بعض نجاح أجتماعى لم يحققاه هما ، وقد ساعدتهما على إتخاذ القرار وقتذاك دعوى حماسية أنتشرت بين سكان مدن مصر على وجه الخصوص تطالب بمجانية التعليم .. وهى الدعوى التى تحولت الى واقع فعلى بعد فترة وجيزة . وهكذا دخل سالم وأمين المدرسة الابتدائية فى سنوات النصف الأخير من الأربعينات ، وهناك تعارفا وأصبحا صديقين ..

والمدرسة عمقت علاقتهما بمثل ما كشفت عن مستوى ذكائهما

العالى . فارتقيا معا المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وتوطدت العلاقة حتى شملت الاسرتين عن طريق الولدين . غير أن أمين كان بطبيعته سليم النية أنطوائى النزعة ، مما أطمع فيه الأولاد الأشقياء من زملاء المدرسة . وكان سالم مختلفا عنه ، وأن لم يكن ذلك الاختلاف مما يولد التصارع .. وعلي هذا أحب سالم أمين وحمل علي عاتقه عبء الدفاع عنه أمام الأولاد الأشقياء . كانوا يسمونه « الشيخ أمين » ويحاولون التحرش به بين الحين والحين ، وعندئذ يتصدى لهم سالم الذى لم يكن يختلف بدوره عنهم كثيراً ، ولكنهم كانوا يهابونه بسبب ارتفاع قامته غير العادى ونظرات عينيه الحادة .

ومن الاشياء التى قربت بين سالم وأمين ، تفانى الاخير في الصداقة وأخلاصه الحميم لمن يرتبط به ، علاوة على حبه للرسم وتفوقه فيه ، ثم ممارسته له عن بعد كهم خاص ورسالة حملته بعد ذلك كل ما صادفه فى حياته من عذاب وشقاء . وكان سالم - الذى لم يخل من نزعة مغالية لم يتخلص منها تماما حتى الآن رغم المسار العملي الناجح الذي قطع فيه خطوات بعيدة - مبهورا بأمين منذ أن تعرف عليه ، أنبهار الصبية بالأشياء الغريبة غير الاعادية ، وكان يعبر عن أنبهاره هذا بالاستمساك بصداقة شخص كان يراه عظيما ومعجزة من معجزات الحياة ... أنه يفعل ما يعجز عنه الآخرون : يجيد الرسم . هكذا كان عقله الصغير يصور له الامور . وانبهاره هذا هو أيضا ما جعله فى ذلك الحين يحاول قدر استطاعته أن يقترب من عالم أمين .. قرأ المجلات التى كان يقرأها

أمين ، ثم الكتب ، وارتاد معه دور السينما ، ولكنه بقى على هامش الموسيقى عاجزا عن الغوص في أعماقها السرية ..

وحدث بعد ذلك أن بدأت السبل تفرق بينهما عقب أنتهائهما من الدراسة بالمرحلة الثانوية . ودخل سالم الجامعة ليدرس الهندسة ، بينما كان أمين قد ركبه عناد لم يفهمه أحد - حتى سالم - فرفض تماما استكمال دراسته . وعثر أمين على وظيفة بالحكومة ، ثم تزوج فتاة فقيرة عرضته أسرتها لمواقف عصيبة من الاهانات المتلاحقة ، فطلقها في النهاية ، وقيل بعد ذلك أن زوجته أصيبت بالخبل أو الجنون . أما سالم فقد واصل دراسته حتى تخرج مهندسا ، وعينته الحكومة بمرتب ضئيل فى أحدى المصالح الحكومية .. ولم تنقطع صلاتهما خلال تلك الحقبة وإن كانت قد بدأت تضمر ويقع عليها أنعكاس الهموم الجديدة الوافدة ..

ثم كان أن أتيت الهزيمة الكارثة بكل ثقلها البغيض فوق كاهل شعب مصر . وكأن هذه الهزيمة كانت حدا فاصلا فى حياة الناس .. فرأى كل واحد فيها مشكلته الخاصة ، فأستغلها البعض وهرب من مواجهتها الغالب الأعم . أما أمين فاستقال من وظيفته إذ كان يرى تلك الهزيمة في وجوه زملائه ومسلكهم اليومى ، ثم مات أبوه فأمه ولم يتركا له شيئاً ولا حتى مجرد البيت إذ كانت شقيقته الكبرى قد أستولت على شقة الاسرة بحكم أقامتها هى وأولادها فيها خلال حياة الأب والأم ، ولم يشأ

أمين أن ينازعها فيها لطبيعته المسالمة كما لم يحب لأسباب تخصه مشاركة شقيقته وزوجها وأولادها المسكن ، وعلى ذلك بدأ مسيرة تشرده الطويلة .. يسكن حينا عند صديق أعزب ، وحينا آخر - إذا تيسر المال - يستأجر حجرة مفروشة ، وهو في جميع الحالات ، ومنذ ذلك الحين ، ولم يكن يعرف كيف يتكسب الناس المال ، وعاش معدما معظم الأوقات . أما سالم فعقب الهزيمة تزوج ابنة رجل كبير فى الدولة كان قد تعرف عليها أثناء فترة الدراسة وأخفق فى الارتباط بها بسبب وضعه الاجتماعى البسيط . غير أنه فوجئ بها تعاود الاتصال به أثر محنة تعرضت لها وتشجعه على الزواج . وقد زينت له الأمر بشقة جاهزة ومفروشات فخمة ووعود بعمل لائق يوفره له أبوها ، وهكذا تزوج سالم . وعن طريق هذه الزيجة حصل له حموه على عقد للعمل بالسعودية في مجال الاستشارات والهندسة المعمارية حقق من خلال مدخرات لا بأس بها عبر أربع سنوات قضاها هناك ، فلما عاد شارك حماه فى تأسيس مكتب للمقاولات والاستشارات المعمارية ، وأصبح اليوم يعد واحدا من الأثرياء ..

وحدث أنه منذ سفر سالم ، وحتى بعد عودته ، لم يتقابل هو وأمين ولامرة واحدة الا فى ذلك اليوم الذى دبرته الصدفة الغريبة ..

ولما أن وصلا الى تلك البقعة الجرداء على الطريق الضيق الملتوى الذاهب الى صحراء مصر الغربية بعد منطقة العجمى ، نطق سالم أخيراً بعد صمت طويل وقال :

« يسمون هذا المكان أبو يوسف ... »

ثم أشار الى بيت صغير جميل كانا قد توقفا بالسيارة بالقرب منه ، ومنه يرى البحر على بعد قريب ، واستطرد يقول :

« وهذا البيت ملك لى .. »

ودعا سالم أمين الى دخول البيت ...

ولما دخلا رأى أمين البيت فخما من الداخل ، مؤثثا بأثاث عصرى وشامل المحتويات وأن شابه اضطراب وأهمال . وكان سالم أثناء ذلك يفسر الأمر ، وبدون أن تبدو في صوته نبرة أعتذار ، بأنه لا يقيم فى البيت الإ صيفا ومن الطبيعى أن يكون البيت على هذا النحو من

الاهمال في مثل هذا الوقت من الشتاء ، ثم وهو يرتمي فوق مقعد متأثراً بالقنوط الذى كان قد عاد اليه أثر انطلاقه بالسيارة مستأنفاً السير ، أضاف قائلا ان البيت وقطعة الارض من حوله كانا ملكا لحميه الذى تنازل له عنهما فأعاد هو تجديد فرش البيت . ثم تنهد وبدا كما لو كان نادما على حديث لم يكن يحب أن يتعرض له . ولقد ساعده أمين بالتزام الصمت فلم ينطق باستفسار ولم يسأله عن شئ ..

إنما الذي سأل كان هو سالم نفسه ، حين قال لأمين بعد ذلك :
« ولكنك لم تفسر لى وجودك فى المكس فى تلك الساعة المبكرة من الصباح ... هل كنت ذاهبا الى عملك ، وهل عطلتك أنا الآن باصطحابى لك ؟؟ »

فأطرق أمين وهو يقول : « ليس لى عمل بالشكل الذى تتصوره ، وأنت لم تعطلنى عن شيء .. »

حينئذ ظل سالم يتطلع اليه صامتا بعينيه اللتين لم تفقدا حدتهما ، ولكن نظراته الى أمين كانت ممتلئة بدهشة تضبطها إرادة قوية للتحكم فى النفس ، وشفقة نابعة من معين للذكريات ، وحب استطلاع . وقد ظل هكذا الى أن استطرد أمين قائلاً : « الحكاية ألى كما سبق أن قلت لك كنت أعضى الليل أمس عند صديق يسكن خلف منطقة المصانع بالمكس فى المكان الذي يسمى وادى القمر . وقد خرج الرجل مبكرا لعمله ولم أشأ أن أبقى وحدى فى بيته ... »

ثم أكمل أمين ، وبدون أن يتوقف ، وبنبرة سريعة : « لقد خرجت من السجن مساء أمس .. »

وكان قد رفع رأسه عن الأرض وراح يسدد نظرات حزينة ، معبأة بالأسى ، وثابتة تماما مع ذلك ، نحو سالم ..

وبادله سالم النظرات محدقا في وجهه الضامر ومتأملا شعيرات ذقنه غير الحليقة ، وقاوم أشياء في داخله ، ثم سأل باتزان : « السجن .. ؟ لماذا ؟؟ »

فعاد أمين الى الاطراق وأجاب : « تلك حكاية أخرى .. »

فاعتدل سالم في مقعده وقال : « أريد أن أسمعها .. »

وبدا أن سالم قد خرج من حالة ضجره وقنوطه للمرة الثانية في هذا اليوم ..

وقال أمين على الفور ودون توقف طويل : « نحن لم نلتق منذ متى .. ؟ عشر سنوات حسبما أتذكر . خلال هذه الفترة الطويلة حدثت أمور كثيرة ، لى ولك بالطبع . ومن الواضح لى الآن أنك أصبت نجاحا فى حياتك ، بينما لم أصادف أنا – ولعل ذلك كان باختيارى – سوى الفشل على طول الخط . وأنت لا تعرف شيئا عن ذلك بمثل ما أنى ، لا أعرف شيئا عن تطورات حياتك خلال تلك الفترة . ولكنى أظن أنك تتذكر أننى فى الأيام التى سبقت أنقطاعنا بسبب سفرك كنت قد تركت عملى بلا خطة واضحة وبدأت أتعرض للعديد من المشاكل

الحياتية السخيفة . دعك من هذا الآن ، فليس لذلك صلة بما تريد أن تعـرف ، فى ظاهر الأمر على أى حال .. والمهم هو أننى منذ ذلك التاريخ ، ونتيـجة لتفاعلات نفسية وفكرية يطول شرحها ، أدركت بالتدريج أن الرسم - والفـن عامة - هو قضية حياتى ، وكان من الطبيعى أن أتواجد وسط تجمعات الفنانين ، الذين لم يكـن بينى وبين أغلبهم مع ذلك وفاق كبير ، وذلك أيضا أمر يطول شرحه الآن .. غيـر أنه كان من بين تلك التجمعات مجموعة أرتبطت بها ارتباطا إنسانيا حميما .. كنا جميعا ساخطين بسبب الهزيمـة ، وفقراء ومعـوزين ، ولا تلوح أمامنا فرصة للتعبير الحر وتحقيق الذات على الاطلاق . وكان الوضع السـياسى فى البلد خانقا فى تلك الايام ومثقلا بعـوامل التمـرد العفوى والقمع الشرس فى آن واحد ، والسياسة على وجه العـموم - بؤرة الـشر فى الوجود الانسانى - كانت تتغلغـل في كل مناحى الحياة وتفرض نفسها على أهتمامات كل من له أهتمام ، وهكذا جرفنا التيار الخبيث وصار لنا وجود فى حسابات اللعبة السخيفة .. رصدنا ، ثم تم تصنيفنا ، ووضعنا فى قائمة الماركسيين ، بينما لم يكن فـينا ظهر واحد أو أثنين ممن لـهم ميـول - مجـرد الميـول - إلى النظرية الماركسية ، وأخيرا قبـض علينـا جميعا ووضـعنا فى السـجن لبضعة أيـام ثم أفرجوا عنا بعد أن طالبوا كل واحد منا علي أنفراد بضرورة دفع الثمن .. فلكى يأمـنوا شرنا الماثل في خيالهم عمدوا الى محاولة إستخدام كل منا ضد الآخر وتشكيكنا فـى بعضنا حتى يتم لهم

تشتتنا النهائى .. وهو ما حدث للأسف بالفعل . ولست أعرف على وجه اليقين الضغوط التى تعرض لها زملاتى وأصدقائى ، كما لا أستطيع أن أجزم بمدى أستجابة هذا الزميـل أو أنهـيار ذلك الآخر ، تلك حكايات لا تؤمن عليها سوى الضمائر . ولكن الذي أعرفه فقط هو ذلك الذى حدث معى وجرى لى .. لقد حاولوا الاتصـال بى مـرات بهدف الايقاع بى ولوحـوا حينا بسـيف الارهاب ولمحوا حينا آخر بمغريات التـرغيب . ولما وقعـت فى أيديـهم ذات مرة كنت حادا وواضحاً وصـريحاً ، فقلت لهم أنى أكره السياسة والعاملين بها وأعتبرها بؤرة الشر فى الوجـود البشرى ، وأنه حتى فى حالة أنصياعى لهم واستسلامى لضغوطهم فإن ذلك لن يثـمر غير الفشل ، لأنهم قد أختاروا رجلا لا يتمتع بما يجب أن يتمتع به العملاء والعسس من مواهب وقدرات . ثم خرجت من عندهم فى ذلك اليوم بـدون أذى متصـورا أنهم قد حسبونى مجنونا ، أو مخبولاً لا ترجى منه فائدة ولا يشكل ضررا في ذات الوقت . الا أن ما وقـع لى ذات ليـلة مضى عليها اليوم شهران أكـد لـى أن تصـورى فى ذلك اليوم البعـيد كان حـماقة ونقصـا شديـدا في معـرفة هؤلاء المخلوقـات .. لعلك على شئ من البـينة الآن من أى حياتى منـذ أن أنقطعت صلاتنا كانت حلقات من التشرد والضـياع ، هذا واقـع بالفعـل عـمره الآن يجاوز السنوات العشر ، وذات ليلة من شهـرين عضنى الجوع وشتتنى الضياع على الارصفة ونواصى الطرقات ، فلجـأت الى رجل أعرفه ويعرفنى ألتمس عنده طعاما ودفئا ومكانا

أريح فيه بدني لساعات . وكان الرجل مطلوبا لقضية سياسية لم أضعها في أعتباري ولا حتى تنبهت الى ما قد تجره على من عواقب ، بل كيف يمكن أن يفكر الانسان ببساطة على هذا النحو ؟؟ لقد حدث ما حدث على أية حال بتدبير صدفة سخيفة .. حضروا اليه أثناء الليل ، وبينما كنا نتأهب للنوم ، والضابط الذى قاد القوة التى داهمت البيت كان هو نفسه الضابط الذي واجهته في ذلك اليوم الذى كلمتك منذ قليل عنه ، والذى تصورت أنه حسبنى منذ سنوات رجلا مجنونا أو مخبولاً على أحسن الفروض . حين وجدنى لحظة هجومه على البيت ، ابتسم ، ثم ألقى على تحية لزجة ، وبعد ذلك أمر جنوده باقتيادى مع مضيفي المقصود فى الأساس .. ثم أفرجوا عنا .. مضيفى وأنا - أمس مساءً ، بعد أن قضينا شهرين فى السجن ، بلا تحقيق ، بلا قضية ، ومن غير أن نقف أمام أحد من القضاه .. تلك هى حكاية السجن التى أردت أن تسمعها ... »

ولما أكمل أمين كلامه هذا لزم الصمت ، على حين كان سالم قد بلغ ذروة تأثره بما سمع ولكن دون أن تخونه أرادته القوية فتجعله يعبر عن تأثره هذا بأكثر من العلامات التى ارتسمت على وجهه القوى الرزين القسمات ..

حينئذ ، سرى بين سالم وأمين صمت مديد ..

وخلال ذلك الصمت ، رأى أمين ضابط المباحث يدخل عليه ، ولكنه

كان فى أنتظاره مترقبا ومدججا بالسلاح ، فشهر رشاشه علي الفور وراح يمطره بوابل من الرصاص . وفى المحكمة زأر النائب العام وجأر ، وطالب بالويل والثبور وعظائم الامور . وفى القفص وقف أمين يتطلع الى القاضى ذى الوجه الأملس والملامح المرتخية ، ثم لم يستطع أن يتمالك نفسه فاندفع يبصق على وجه القاضى والنائب العام ..

وأستطال الصمت بين سالم وأمين ، حتى نهض سالم من مقعده ومشى الى شرفة واسعة تطل على الخارج ووقف من خلالها يتطلع الى البحر البعيد والأفق الضائع وسط الغيوم المتكاثفة . كان يحمل فى صدره هما كبيرا ومعقدا ، ولكنه حتى ذلك الحين لم يصرح به . ولما أستدار عائدا الى أمين الذى ظل جالسا وحده طيلة الفترة التى قضاها هو واقفا فى الشرفة ، تكلم قائلا : « إذن فأنت تعيش بلا عمل ولا بيت .. »

ولم يجب أمين بكلمة . هز رأسه فقط هزات قليلة متعاقبة ..

قال سالم وهو يدور حول نفسه : « تستطيع أن تعيش هنا أن أحببت .. » ثم توقف عن الكلام واستمر يدور حول نفسه ، وشعر أمين أنه يبتر حديثا يحرص علي إلا يمتد . ولكن سالم عاد مرة أخرى فتكلم وقال : « ولكنك سوف تعيش هنا وحدك لأنى لن أبقى معك أكثر من ساعات .. »

وهنا أراد أمين أن يلفظ بشئ ، غير أنه لم يتمكن من ذلك ، لأن سالم فى نفس اللحظة ، وبدون أن يدع له الفرصة الكافية ، كان قد ألتفت اليه وقد أكتسى وجهه بتعبير غير عادى على الاطلاق بينما أسترسل يقول فى صوت متكسر ذى بحة محملة بالاصرار والعنفوان : « أمين .. أنت رجل فنان وصاحب عقل كبير ، وأنا واحد من القلائل الذين آمنوا بك .. ما رأيك إذن فى مسألة الموت ؟؟ » .

ثم أستأنف وهو يتهالك على مقعده : " أعنى مسألة الموت والحياة ، وهل يستحق هذا الوجود أن نحياه .. أنها نفس الأسئلة التى كنا نسألها ونحن صبية ، هل تتذكر ؟ .. وقد كانت لنا أسبابنا وقتها بالاضافة الى طبيعة مرحلة عمرنا وقتذاك .. ولكن ، والآن ، وبعد كل ما حصلنا من الخبرات وشقينا به من التجارب .. الأن وقد تخطينا الأربعين ، يطل علينا السؤال من جديد .. »

قال أمين بأقتناع هادئ وفى نبرة فيها بعض المرح : « وسوف يظل .. »

وعندئذ عقب سالم بسأم : « يا لها من مسألة سخيفة أذن أن نحافظ على بقائنا على قيد الحياة ... »

وكان سالم عند هذا الحد قد قرر أن يبوح بما في صدره ... تضعضعت أرادته أخيرا ..

قال سالم : « أمس مساء - ولعل ذلك قد كان فى نفس

التـوقيت الذى خرجت فيه أنت من السجن - أقامت زوجتى حفلا عظيما بمناسـبة ما أسمتـه عيد مـولدى الاربعين .. وهى قد فعلت ذلك لاسباب لا تعرفهـا أنت ، ويطول شرحها كما قلت أنت أيضا عـن أمـور حياتك .. باختصار شديد أستطيع أن أقول لك أنها في الشهور الأخيـرة توجست من أن قبضتها الحديدية التى أحكمت هى وأبوها تطويقى بها ، بدأت تلين وتتكسر .. وباختـصـار شديـد أيضا أقول لك أن حماسى للعمل قد بـدأ يفتر فى الفترة الأخيرة ، ثم أهملـته تماما ، مما غـذى خلافا متناميا نشأ بينى وبين حمىّ الذى يشاركـنى فى رأس المـال .. نحن نعمـل فى المقاولات والاستشـارات الهندسية ، ولـنا مكتـب ناجح يعتمـد على علاقـات الرجل القديمة المتشـابكة الاخطبوطية ، ويعتمـد أولا وأخيرا علي ثور ذى كفاءة عاليـة يدور مغمض العينين فى ساقيه هذا المكتب التى لا تهدأ .. هذا الثور هو أنا .. ولـما طـال الاهمـال وتأزم الخلاف ، دفعتنى زوجتـى دفعـا - هى بالمناسبة ظلت بارعة في ذلك منذ أن تزوجنا - إلى عيادة الطبيب النفسى . ولكنى أمام الطبيب الغبى الذى قادتنى زوجتى اليه ، وجدت نفسى صريحا للغاية .. فلـما سألنـى مما أشكو منه قلت له أنى تزوجت حية رقطاء خرجت من صلب تيس ، وأن سـبب مرضـى فى الأسـاس راجع الى أنى أخفقت في العثور على إجابة للسؤال الذى يقول : لما ينجح فى بلادنا الاغبياء والاوفياء بينما يضيع الأذكياء الموهوبون ؟؟ ولكنى حين قلت لذلك الطبـيب هذا الكلام ، جحظت عيناه ثم أبتسم

ابتسامة خبيثة ، ثم أنكب على أوراقه يدون فيها كلاما لا أعرفه .. وبعد ذلك تغيرت معاملة زوجتى لى بشكل أمرضنى أشد مما كنت عليه ، إلي أن توجت كل ذلك بالحفل الذى أقامته بالأمس . »

وتهدج صوت سالم وهو يلفظ تلك الكلمات الأخيرة . وعندئذ لاحظ أمين أن العرق كان قد أخذ يلمع على جبهته وعند صدغيه رغم برودة الطقس . وفى نفس الوقت تقريبا كان سالم قد مد يده الى جيبه أثناء الحديث وأخرج منديلا ، وراح يمسح العرق عن جبينه وصدغيه . توقف قليلا عن الكلام أثناء ذلك ، ثم واصل قائلا وهو يحدق بنظراته الحادة في وجه أمين : « حدث شئ غير عادى أثناء ذلك الحفل .. شئ جعلنى أتخذ قرارى بلا تردد وبلا تراجع بعد أن أصابنى بالدوار .. لقد أفهمتنى زوجتى أنها دعت مجموعة من الآدميين لمشاركتنا الاحتفال بالمناسبة ، ولكنى ، وفى لحظة معينة ، تطلعت الى وجوه الحاضرين فاكتشفت الخديعة التى وقعت فيها .. لم يكن فى الحفل آدمى واحد كما ذكرت لى .. ولم أجد حولى سوى ضفادع وسحالى وفئران .. كانوا جميعا أما سحالى تزحف على بطنها أو ضفادع تقفز من مكان الى مكان أو فئران تنظر الىّ من على بعد بأعينها الجبانة المترقبة الحذرة المتأهبة للانقضاض على رأسى عند أول غفلة أغفل أثناءها عنها .. ولقد جريت هاربا من البيت سعيا الى الانعتاق من هذا الحصار البشع ،

خرجت الى الشارع وظللت أعدو ثم أتوقف وأحملق في وجوه كل المخلوقات ، ثم أعدو لأعود من جديد ثم أتوقف .. ياللبشاعة .. أنني لم أعثر على آدمي واحد وسط كل من صادفت في الشارع ، فأيقنت أن البشر جميعا قد انقرضوا . وهكذا عدت متسللا الى البيت وأخذت السيارة وانطلقت بها والتقيت بك .. أنت أول آدمي أراه منذ الأمس .. »

وقال له أمين : « ولكنهم بالتأكيد سوف يبحثون عنك .. وسوف يحضرون الى هنا لأنهم يعرفون المكان .. أليس كذلك ؟ »

وعاد سالم الى مسح العرق المتصبب فوق جبينه وصدغيه وقال بثقة تامة : « لا أحد يتصور أنني آتي الي هذا المكان في مثل هذا الوقت من السنة وفي مثل هذا الطقس ... ولذا فسوف يستغرقون وقتا طويلا في البحث بعيدا عن هذا المكان قبل أن يسلمهم تفكيرهم الى الحضور الى هنا .. »

وعندئذ سأله أمين قائلا : « وماذا ستفعل عندما يحدث ذلك .. ؟ »

وبرقت عينا سالم بحده وأجابه : « ألم أقل لك أني قد لا أبقى معك هنا أكثر من ساعات ؟؟ ألم أحدثك من قبل عن معنى الحياة وأسألك عن رأيك في الموت ؟؟ »

وكان سالم يريح ظهره ويغوص في المقعد وهو يكمل قائلا :

« سأكون قد مت يا صديقي ، ثق بي .. لابد لي أن أموت في غضون ساعات حتى لا تجدني الزواحف والحيوانات حين تزحف الى هذا المكان .. »

وحدث أن الريح أثر ذلك عوت خارج البيت وراحت تصك النوافذ بعنف . وانكمش سالم في مقعده وبدأ يحملق في النوافذ المصطكة وكأنه يترقب دخول أحد .. وبقي على ذلك بعض الوقت . وفجأة مال برأسه على صدره وانخرط في بكاء شديد . ومشى أمين اليه حتى أقترب منه ، ثم أحتضن رأسه بين كفيه فإذا بسالم يجهش ببكاء أشد ..

وظلت الريح تعوى فى الخارج بلا انقطاع . وكان صوت اصطخاب موج البحر يأتى مختلطا بصوت الريح ، ومحملا بالرهبة ودافعا الى جيشان المشاعر . ومرة واحدة انقض سالم ، وخلص رأسه من بين ساعدى أمين وقال : « أسمع يا أمين .. أنت لم تأكل شيئا حتى الآن ، وأنا لم أحضر معى طعاما . انتظرنى هنا .. سأذهب الى العجمى أو المكس لأشترى طعاما .. »

واندفع نحو مدخل البيت دون أن ينتظر ردا وهو يقول : « سوف نحتفل بهذه المناسبة الرائعة .. »

وخرج أمين وراءه ، ورآه وهو يدور بالسيارة ويندفع بها فوق المدق الحجرى الذى تحيط به الرمال ، حتى أبتعد فى الصحراء وصار مثل نقطة داكنة فوق بساط أصفر مغبر . وعند ذلك هطل المطر من السماء كالسيل ...

وأغتسلت السيارة وهى تجرى تحت المطر ، وأغتسل أمين فى طريق عودته الى البيت النابت وسط الصحراء المطل على البحر من على بعد قريب . وما أن صار أمين وحده فى البيت حتى قال لنفسه : « إنما نحن ضحايا زمن صعب وظروف خاطئة .. » ثم غرق فى شجون عميقة ..

وكان الصوت الذى كلمه أثناء ذلك يقول له : « القيمة الوحيدة الباقية في هذا العالم هى النجاح ، فماذا فعلت أنت .. ؟ لقد دمرت نفسك بيديك . كان بوسعك أن تلتحق بكلية الفنون لتأخذ وضعك الاجتماعى وهذا ضرورى جدا .. نحن أمة تهتم كثيرا بشكليات الامور وهذا نابع من طبيعتنا السكونية ومن عقدة الحرمان المتأصلة فينا . وحتى بعد أن تمردت على هذا الحل السهل اليسير ، رفضت أن تسلك المسالك التى ينفذ منها الناس .. أنت موهوب حقيقى ، لا أحد أنكر عليك ذلك ، ولكن الحياة صعبة ولم يعد شعبنا يهتم بما تسميه الفن

والاسباب بالطبع معقدة ولكن الناس مجهدون ، فكن عمليا في الحياة وحسبما تقضى به من حولك الحياة .. زخرف شقة أو صمم ديكور حانوت ، وأعـدك بأنك سـوف تكسب الذهب ، فقط مطلوب منك أن تساير ما هو قائم .. تقلد ما هو موجود أو وافد عليك أو مثير للاستحسان ، لا تبتدع ولا تناقش .. ولماذا تفعل ذلك طالما أن أحدا لم يطالبك به ؟ .. لا تكن غبيا الى هذا الحد .. »

وتساءل أمين قائلا : « ولكنى فنان مصور ، والمهم الأصيل عندى هو التعبير .. أليس من حقى أن أعبر بالأسلوب الذى أراه ، وأرقى الحياة من حولى بالحرص الدائم لى تجريـدها من سيـئات وفوضى كل ما هو قائم ومستقر ؟؟ »

فأجابه الصوت : « هذا بعينه هو أصل الداء وموطن الغباء .. »

وصاح أمين : « أن أكون على ما خلقنى الله .. »

فقال الصوت : « ولكن الله خلقك لكى تعيش .. »

عندئـذ غضب أمين غـضبا هـائلا وقـال : « هكـذا خلقـنى الله وأمـرنى أن أعيش ... »

وأندفع من المكان الذي كان واقفا فيه ، وجرى فى كل حجرات البيت ، وهدم كل ما وقعت عليه عيناه : الأثاث والمفروشات والنوافذ والمنافذ والجدران .. حتى تحول البيت الى مجرد هيكل من الأعمدة المثبتة على

اساسها الراسخ فى الأرض . وحينئذ بدأ أمين يعيد بناء البيت على صورة أكثر اتساقا وتناسبا وجمالا ووفاء للمتطلبات ..

ولما أتـم أمين بناء البيت ، جلس يتأمله ، وإذا بكـلب شريد يظهر من جوف الصـحراء ويقترب منه ، ثم يقـف قباله وهـو يهز ذيله ويلـهث . ومد أمين يـده الى الكلـب فاقترب منه أكـثر من قبـل ، وعنـد ذلك راح أمين يمسـح على ظهـر الكلـب بحـنان ، وقد أدرك أنـه جائـع يبحـث عـن طعـام . وكـان أمين بـدوره جائعـا ، فقـام مصطـحبا معه الكـلب ونقب فى البيت بحثا عن بقايا طعام قديــم ، حتــى عثر على بعض القديد في ثنايا المطبخ فأخذها ..

وجلس أمين هو والكلب يقضمان القديد ..

وكانت العاصفة قد سكنت ، وتوقف صوت اصطخاب الموج علي البعد القريب وخلال هذا السكون الطازج الأخاذ ، دوت أصوات متتابعة سريعة صادرة عن نفير سيارة خارج البيت ..

رجع سالم حاملا طعاما وفيرا وزجاجتي خمر . ولما رأى التغيرات التي جدت على البيت فغرفاه دهشة وسرورا ..

قال أمين : « نظفت لك البيت وأعدت ترتيب الأثاث .. »

ثم أستطرد حالما : « كنت أتمنى لو استطعت هدم جدرانه وأعادة بنائه من جديد .. »

وكان أمين وهو يقول ذلك جالسا القرفصاء يربت على ظهر الكلب .

فسأله سالم وهو يقترب منه : « ومن أين أتيت بهذا المخلوق ؟؟ »

فقال أمين : « جاء بنفسه الى هنا ووقف على عتبة البيت ، وكان جائعا .. هل تمانع في أن يبقى معنا .. ؟ »

وترك سالم ما بيده ، وأقعى الى جوار الكلب وأمين ، وراح يداعب الكلب بود ، بينما كان يقول : « أبدا .. على الاطلاق .. »

ثم نظر الى أمين ، وبرقت عيناه الحادتان النافذتان وهو يقول : « هل تعرف يا أمين ... منذ وقت ليس بالقصير ، تأكدت أن هذا المخلوق هو وحده الذى سيبقى حافظا لسجايا وخصال البشر الذين ينقرضون هذه الأيام .. »

وأقام جذعه بخفة ونهض واقفا بادى النشاط والسعادة ، وقال إنه في حاجة الى حمام ، وأوصى أمين أن يعد الطعام . ولما خلع ملابسه وبدأ يغتسل شرع فى الغناء بصوت سمعه أمين خارج الحمام ، ولكن حماه ظهر فجأة داخل الحمام وقال له : « أنت شاب ذكى وطموح وموفور النشاط وأنا معجب بك وأحبك كولدى الذى لم أرزق به . لذا فإنى أعتبرك عوضا من الله لى . غير أن واجبى نحوك يلزمنى أن أحذرك من مغبة حدتك وإنسياقك وراء العواطف . هذا يا ولدى عالم أنت فيه أما قاتل أو مقتول .. وأنا لا أحب لك أن تقتل . كما لا أظنك تحب أن تخسر كل هذا النجاح الذى أنعم الله به عليك .. » وصرخ سالم حتى سمعه أمين خارج الحمام ، وقال : « لا . أنه الشيطان .. لا يفعل الله أبدا ما تفعلون .. » ونظر الى الماء المتساقط عن جسده والذى كان يجرى مندفعا الي فتحات تصريف الماء بأرضية الحمام ، فرآه عطنا ، محملا بقاذورات لا تنتهى ، مغبر اللون ، خاليا من شفافية الماء . عندئذ شرع سالم بحمية بالغة في أعادة الاستحمام ، وفعل ذلك أكثر من

مرة .. وفى النهاية أرتدى ملابسه ، وتأهب لمغادرة الحمام . وعند الباب أعترضه المقاول الذي أفلس وحاول أن يجادله لاقناعه بالسماح له باتمام الشغل وخصم قيمة الخسائر من حسابه الأخير ، وحدثه عن بيته وأولاده ، ثم بكى متضرعا ومتوسلا . ولكن حماه ظهر مرة أخرى وجذب الرجل من ذراعه ونحاه عن الطريق ..

وكان سالم جالسا فى أنتظار الطعام الذي كان أمين منهمكا في أعداده ، حين جاءت زوجته ودست أصابعها فى شعر رأسه ثم مالت عليه . وكان سالم بارد الاحاسيس وهى تميل عليه ، ثم أخذ احساس بالتقزز يتصاعد فى داخله ، وأخيرا نظر في عينى زوجته ، فإذا به وجها لوجه أمام حية قد تهيأت لكى تلدغه .. وفى نفس الوقت نبح الكلب الذى كان مقعيا عند قدميه ، فانتفض سالم ، ونجا من موت أوشك أن يحيق به ..

ولما وضع أمين الطعام أمامه وجلس ، لم يأكل سالم وإنما أنشغل في أطعام الكلب الذى ظل مقعيا عند قدميه . وأفرغ له أمين أقداحا متتالية من الخمر كان يعبها عبا وهو مقطب الجبين ، وكان أمين يشرب هو الآخر ويأكل اذ كان يستشعر الجوع .. وبينما كان أمين يأكل قال هذا الكلام : « الجوع كافر حقا يا أخى كا يقولون .. واذكر أنى مرة كنت ألتقى ببعض فضلات الطعام في صندوق قمامة

عند باب شقة كنت أسكن فيها ، وأتت قطة جائعة في نفس الوقت الذى كنت ألقى فيه الفضلات ، وبمجرد أن دفنت رأسها تتشمم حتى أصدرت مواء أجش متقطعا ومتواصلا . ورغم أنى لم أكن قد اتخذت من القطة أى موقف عدائى ، كأن أنهرها مثلا بصوتى وهو أبسط سلوك تسلكه أزاء حيوان ، إلا أنها - وبطريقتها الخاصة - أشعرتنى خلال ما حدث بأنى فعلا عدو لها فى موقف لم يكن - منطقيا - فى صالحها على الاطلاق .. كنت أنا - بشكل غير مباشر على الاقل - من قدم لها الطعام ، ثم أنى علاوة على ذلك وقفت أرقبها وهى تأكل دون أن أمسها بأى ضير ولو بمجرد الصوت كما قلت لك . ومع ذلك فقد أستمرت تموء ذلك المواء الأجش المتقطع اللاهث ، وتنظر الى بين الحين والحين كأنى متأهب لايذائها أو أنتزاع الطعام من أمامها وحرمانها منه ، حتى أقنعتنى فى لحظة من اللحظات وأنا واقف أرقبها ، أنها هى التى سوف تنقض علىّ وتنشب مخالبها وانيابها فى عنقى .. يا للرعب . أترى ما يفعله الجوع بمخلوقات الله ؟؟ لقد تأملت هذه المشكلة كثيرا ، ويا طالما عذبنى التفكير المحموم فى اسبابها وكيفية الخلاص منها ، ليس بتحقيق ما يسمى بالعدالة الاجتماعية التى يبدو أنها ستظل حلما فى قلوب بعض الناس ، وإنما بالتسامى والعلو عليها .. ولقد حدث ما

يشبه ذلك لى بالفعل ، وعبر تجربة شخصية محضة ، إذ أننى ذات مرة بقيت بدون طعام لمدة ثلاثة أيام متتالية . أجل ، ثلاثة أيام .. لم يكن بوسعى عمل شئ ، فبقيت جائعا ثلاثة أيام لا يدخل أحشائى سوى الماء . فى البداية كان الجوع قاسيا ، ثم أشتدت الآلالم فى معدتى مصحوبة بسخط نفسى أوقفنى على مشارف الرغبة العارمة فى العنف والجريمة ، ثم بدأت أخيلتى تنحرف بصورة بشعة فتمثلت مواقف ما كان لي أبدا أن أتصور أنى سوف أتمثلها ذات يوم .. اقترفت القتل كاملا ، وبكافة التفاصيل الدقيقة ، بل وجدتنى أستمتع بمنظر الدم الذى سال كثيرا ، لم يقشعر بدنى ولم أشمئز . وأثر ذلك ، ومع استمرار الجوع ، بدأت سكينة غريبة تنساب في روحى وتتغلغل شيئا فشيئا حتى شملتنى تماما بصفاء من نوع نادر لا تتيحه لنا حياتنا الراهنة .. وكنت أثناء حالة الصفاء تلك ، قعيدا لا أتحرك إلا بالكاد . ومع ذلك فقد رحت أحلق في عوالم غنية رحبة وأطوف بمسرات لم أعهدها .. »

وتوقف أمين لحظة عن مضغ الطعام ، وتطلع الى سالم ثم قال :

« ذلك هو التسامى والعلو الذى عنيته . ولكن هذا لا يمكن أن يتحول الى قانون عام ، هل تفهم ... ؟ أجل ، لا يمكن أن نسلم بمثل هذا

المثال لانه ببساطة لا يتحقق الا لقلة من الناس ، بينما الغالب الأعم منهم حاله مثل حال تلك القطة التى حدثتك عنها . وحتى لو كان الجميع يصلون في النهاية عبر تجربة الجوع الى تلك النقطة الحرجة التى حولتها أنا الي نوع من التسامى فان الخطر عندئذ يصبح رهيبا .. هل تفهمنى ؟ ... فالتى تفصل بين لحظة التسامي وحالة البلادة المرضية وانطفاء العقل وموت الحواس أن هى إلا شعرة واهية .. أجل ، شعرة واهية . ولست أستطيع أن أجزم لك بما كان يمكن أن يحدث لى لو لم أكن قد تناولت طعاما جيدا بعد تجربة الجوع تلك .. أبدا ، لا أستطيع . هل شاهدت بالمناسبة بعض حالات أمراض سوء التغذية وفقر الدم المنتشرة في أفريقيا وآسيا وقرى الريف المصرى ؟؟ صدقنى .. أنه هول تعجز عن وصفه الكلمات .. »

وساد بينهما الصمت من جديد . وكانت العاصفة في الخارج قد توقفت تماما ، بل أن خيوطا واهنة من أشعة الشمس تسللت من بين السحابات وانتشرت فوق رقعة الصحراء المحيطة بالبيت وانعكس نورها على النوافذ . وأنهى أمين طعامه وراح يتابع الكلب الذى كان قد ترك مكانه تحت أقدامهما وأخذ يدور من حولهما متباطئا بعد أن شبع ، وقال موجها الحديث الى سالم دون أن ينظر اليه : « أنا لم أحدثك

على أى حال عن معنى أخر من معانى الجوع .. معنى لا يقل خطورة عن كل ما ذكرت لك ، ولعله ليس خافيا عليك . فما أكثر الجائعين وسط قلة من المتخمين السفهاء .. .. أن الشبع الزائد أيضا نوع من أنواع الخطر ، أذ يعمى صاحبه عن رؤية البؤر المتكاثرة من حوله التى تنمو فى داخلها - بفعل الحاجة والاحساس بالظلم والمهانة - كل عوامل هدم الحياة من يأس وأنانية وغلظة في القلوب ، وفوضى مطلقة في النهاية قادرة على أن تدمر كل شئ .. »

قال سالم مغمغما : « أعرف هذا .. »

فالتفت اليه أمين متسائلا : « هل تعرفه بالفعل .؟؟ »

فأجاب سالم وكأنه يكلم نفسه : « أجل .. وأن كنت لا أملك حياله شيئا .. »

فقال أمين : « ولا أنا .. »

وعادا الى الصمت ..

وفجأة لاحظ سالم أن الكلب قد توقف عند مدخل البيت ورفع جذعه مرتكزا على نصفه الأسفل بينما مد ساقيه الأماميتين وأخذ ينبش الباب ، رغبة في الخروج .

وكان الأصيل يزحف على المكان بطقس جديد معتدل ..

وسطعت فى رأس سالم فكرة استحوذت عليه ، ولكن لم يشأ أن يصرح بها مباشرة ، وإنما لجأ الى أن يسأل أمين : « هل تتذكر أيام أن كنا نلعب الكرة الشراب .. ؟ »

وأجابه أمين بخجل : « لم أكن أجيد اللعب كما تعلم .. وكان الأولاد يهزأون بى .. » عندئذ تشجع سالم وقال : « دعك من هذا .. نستطيع أن نلعب وحدنا الآن بلا منغصات .. »

فسأله أمين : « ولكن من أين نأتى بالكرة ؟ »

فقام سالم بسرعة ولهفة وهو يقول : « أظن أن لى البيت واحدة .. انتظر .. »

وعدا نحو مطبخ البيت ، ثم عاد بعد قليل ومعه كرة من التى يلعب بها الأطفال ، وراح يلقى بها على الأرض ثم يلتقطها كأنما

يجريها . وأثنـاء ذلك كان الكلب قد توقف عن نبش الباب وشرع يرقب ما يحدث أمامه ..

وقال سالم لأمين : « ماذا قلت .. ؟ »

وكانت عيناه الحادتان تنطقان برغبة لا تحد واستعطاف آسر .. فلم يخذله أمين وقام معه ..

ولما خرجا من البيت ، أنطلق الكلب أمامهما يجرى ، ثم توقف على بعد منهما وراح يهز ذيله رافعا رأسه محدقا بهما ، وعلى الفور ألقى سالم اليه بالكرة فتجاوزته فجرى وراءها حتى أمسك بها ، وراح يدور حولها خشية أن تفلت منه ثم أقعى على الرمال المشبعة بماء المطر وأحاط الكرة بساعديه الاماميتين .

وجرى سالم نحو الكلب والكرة ، أما أمين فمشى وحده بطيئا يستجلى الطبيعة والبحر والافق البعيد .. وكان الطقس باردا باعتدال ، والرمال تحت قدميه مثل بساط مبتل ، ولم تخل السماء من سحابات بيضاء متراكضة . وعلى حين فجأة شعر بكتلة صلبة ترتطم ببطنه فتوجعه وجعا شديدا ، ورأى الكرة ترتد وتنزلق عند قدميه وتواصل أرتدادها بالجرى على الرمال ، وتطلع أمامـه فرأى الكلب واقفـا وسـالم الى جـواره يتقافز ويقهقه ، فتبع الكرة حتى أمـسك بها وقذفها بكل قوته نحو سالم .. ولكنها لم تبلغه وسقطت بالقرب منه ..

وهتف أمين لكى يسمعه سالم وقال : « ملعون أبوك يا أخى .. »

وجاوبه سالم السياب قائلا وهو يميل على الكرة ليلتقطها : « قصر ذيل يا حمار .. »

ثم رمى الكرة بعنف فى إتجاه أمين ..

واستطاع أمين أن يتلقف الكرة هذه المرة ، ولكنه بدلا من أن يردها إلي سالم قذف بها الى الوراء وأندفع يجرى محاولا اللحاق بسالم والامساك به ، وعندئذ أطلق سالم ساقيه للريح ولكن بعد فوات الاوان ، إذ كان أمين مندفعا اليه كالصاروخ علاوة على أنه كان أسرع منه ، وهكذا لحق أمين بسالم ودفعه بكلتا يديه الى الامام ، فانبطح سالم على وجهه فوق الرمال ، بينما كان أمين يفقد توازنه ويسقط فوقه تماما ..

وتشابكا بالأيدى والاقدام وراحا يتضاربان ، على حين أخذ الكلب ينبح من حولهما نباحا متواصلا ..

وبعد أن أنهمكا ، أستلقيا فوق الرمال الرطبة ووجهاهما في إتجاه صفحة السماء بينما كان صدراهما يعلوان ويهبطان . وقال سالم لأمين وهما على ذلك الوضع : « هذا العالم سخيف جدا .. أليس كذلك ؟ »

فأجاب أمين قائلا : « بالتأكيد .. »

قال سالم : « والانسان على ظهر الأرض نوع من الحيوانات الراقية كما قالت نظرية النشوء والتطور ... أليس كذلك ؟ »

قال أمين : « أجل .. »

قال سالم : « إذن هو في الأساس حيوان .. »

قال أمين : « تستطيع أن تقول أنه حيوان نجح بعد جهاد طويل فى أن يصل الى درجةٍ من التسامى .. »

قال سالم : « طظ .. »

قال أمين : « هل حقا لا ترى أى أمل على الاطلاق ؟؟ »

قال سالم : « على الاطلاق .. »

قال أمين : « الامر مختلف بالنسبة لى ، فأنا لازلت أتساءل .. وطالما أنى لم أعثر على الاجابات بعد يصبح وجودى في العالم مشروعا ناقصا في حاجة الى إتمام ، ويصبح علىّ بالتالى ألا أجنح الى أحكام قاطعة ... »

واعتدل سالم جالسا ، وأنثنى بجذعه مائلا فوق أمين ، وقال وهو يصيح : « أنا أيضا أريد ... أريد أن أكون مثلك قانعا ومتعزيا بالمنطق .. لكن شيئا في داخلى انطفأ ، هل تفهم .. ؟ لقد فقدت كل المتع .. الطعام والجنس وكسب المال .. وفى نفس الوقت لم أصادف متعا بديلة على الاطلاق .. »

وقال أمين دون أن يغير وضعه : « أما أنا فلم أحظ بتلك المتع من الأساس حتى أفقدها . ورغم أنى قد أجتهدت

بالرسم لكى أحصل على المتع البديلة ، إلا أنى لا أزعم لك أنى بلغتها .. نفس الحال كما ترى .. »

قال سالم : « ولكنك تنتظر .. »

قال أمين وهو يمط شفتيه الرقيقتين : « ربما .. أنا لست علي يقين حتى من هذا الذى تسميه أنتظارا .. »

عندئذ نهض سالم قائلا بحدة : « أما أنا فليس عندي ما أنتظره .. »

وجرى الى الكرة ، والتقطها من فوق الرمال ، ثم سددها في إتجاه البحر وألقى بها بكل قوة . وثبت سالم عينيه الى الكرة وهى ترتفع فى الفضاء ، ثم رآها تصعد الى السماء ، ثم تتبعها وهى تخترق السحب وتنفذ الى ما فوقها ، ولم يطرف له جفن خلال ذلك كله .. ولكن الكرة ظلت تصعد وتصعد نحو لا غاية ولا نهاية .. وكان الكلب الذي جاء واقعى الى جوار أمين ينظر بدوره الى الكرة ولا يكف عن النباح ..

كان سالم يحدق في الكرة التى تشق الفضاء ولا تصل الى غاية ، على حين ظل أمين مستلقيا على ظهره وقد تخلص من كل المشاعر وذاب في رحابة السماء التى كانت عيناه مفتوحتين على أتساعها اللا محدود ، حين تناثر فوقهما غبش الغروب . وقبل ذلك بلحظات كان سالم قد أفلتت منه التفاتة الى الأفق ، رأى خلالها الشمس وهى تذبح بين الثنايا والفرجات فتضرج بدمائها السحاب ..

وعندما غطتهما عباءة المساء ، أقفلا عائدين الى البيت يتبعهما الكلب . وفى طريق عودتهما قال سالم لأمين : « أسمع يا أمين .. أنت صديق وفي ولست أنسى تلك الأيام الرائعة التي عشناها معا . وعلاوة على هذا فأنت لم تحظ من هذه الدنيا بشئ .. لذلك فقد قررت أن أتنازل لك عن هذا البيت لتعيش فيه ، بالاضافة الى أنك تستطيع أن تجعله مرسمك الخاص في نفس الوقت .. »

وابتسم أمين ومشاعره متأرجحة بين الشك في كلام سالم والرغبة فى تصديقه ، وقال : « ولكن هذه الأمور تحتاج الى إجراءات قانونية .. »

فتفكر سالم قليلا وقال : « سوف أكتب لك ورقة بهذا الآن .. »

ثم لزم الصمت ، حتى إذا أصبحا عند مدخل البيت أستأنف حديثه

قائلا : « لن يسعى وراءك أحد لينازعك في البهت على أى حال ، صدقنى .. »

ثم كرر القول بصيغة أخرى : « لا يوجد أحد .. لا أحد مطلقا .. »

ولما صارا فى داخل البيت ، أحضر سالم ورقا وكتب التنازل وأعطاه لأمين .. ولم يأخذ أمين الأمر علي محمل الجد على أى حال ، فأخذ منه الورقة وطواها ووضعها فى جيبه . وفى تلك اللحظة كان سالم يدور من حوله حائرا ، ثم توقف أخيرا ونظر الى أمين ، وكانت عيناه هذه المرة يطل منهما بؤس رهيب . وقال لأمين : « لابد أن أتركك الآن .. »

وسأله أمين : « إلى أين ؟؟ »

فأجاب سالم ساهما : « يجب أن أختفي نهائيا قبل أن تلحق بى السحالى والضفادع والجرذان .. سوف يأتون فى أعقابي كما قلت أنت .. أليس كذلك ؟ ولعلهم الآن يتحركون في إتجاهنا بعد أن يئسوا من العثور عليّ فى أى مكان آخر .. »

ثم ردد قائلا : « سوف يأتون الىّ هنا بكل تأكيد .. »

وقال أمين : « ولكن الليل قد أوغل .. ولا أظن أنهم يأتون بالليل .. »

فابتسم سالم بمرارة وقال : « لا . على العكس .. أنهم يأتون أحيانا بالليل أكثر مما يأتون بالنهار .. »

وعند ذلك تبادلا نظرة طويلة كانت أغنى من أي كلام ..

ولكن ، وعلى غير ما توقع أمين ، تهاوى سالم فوق أحد المقاعد مكدورا ، وبدا عليه من جديد أن يحبس كلاما فى صدره يريد أن ينطلق ، مثلما كان عليه عند بدء لقائهما . وتكلم أخيرا بصوت ممزق قائلا : « لابد أن أمشي من هنا في جميع الحالات .. »

وتطلع أمين الى وجهه فوجده ساحة مليئة بالاضطراب ، والى عينيه اللتين غشيتهما سحابة من الاسى ، وقال له : « أنا لست علي يقين من أني سوف أقدر علي أن أتركك تمشي وحدك .. »

فقال سالم بلهفة وفرح : « حقا .. هل تأتى معى أذن ؟؟ »

ولكنه تساءل سريعا وقد أرتد الى الحيرة والقنوط : « ولكن كيف ؟؟ »

قال أمين يطمئنه : « بأى وسيلة وإلى أى مكان .. »

فقال سالم على الفور وكأنه تلقى تصريحا بالبوح : « هى لم تقل مثلك هكذا أبدا . سواء فى مبتدأ الأمر أو منتهاه . وحتى بعد أن تحولت الى حية كنت حريصا عليها ، فطلبت منها أن ننهى علاقتنا بأبيها وننفصل عنه .. ولكنها رفضت أن تصاحبنى وتمضى معى .. هى التي رفضت ، تصور . كان المفروض أن أنصرف أنا عنها بعد أن صارت حية رقطاء ، أيثارا لسلامتي على الاقل خاصة

بعد أن باغتها أكثر من مرة وهى تتأهب لكى تلدغنى وتقضى علىّ ، ومع ذلك لم أفعل .. تصور ، هى التى رفضت . وكنت قد قلت لها مرارا أنى لن أقوى على الاستمرار بعد أن تلوثت يداى بدماء العمال الذين ذبحوا أمامى ، وبعد أن أنتهك شرفى بالسرقات التى ورطونى فيها ، وبعد أن سلبوا منى النوم وراحة الضمير . ومرة أعتدي أبوها بالضرب على أحد موظفى المكتب أمامى ، وعلى بعد متر واحد منى ، ثم فصله من العمل بلا أى تعويض .. وحين تكلمت لم يستمع الى أحد ، بل الأدهى أنها أفتعلت معى مشاجرة حاولت بها أن تصرفنى عن الموضوع الأساسى . وبالرغم من ذلك فلقد كنت حريصا عليها .. تصور .. تلك التى رفضت أن تتبعنى لكى أنجيها وأنجى نفسى من ذلك الشر الذي كدنا نغرق فيه . هل تعرف كيف تزوجنا ؟ .. لا ، أنت لا تعرف ، لم أقل لك كل شئ وقتها . كل ما تعرفه هو أننى وهى كنا مرتبطين أثناء الدراسة ثم أنفصلنا ثم عدنا . فهل تتذكر لماذا أنفصلنا ؟ أعتقد أنك تتذكر .. أيامها كنت أنا شابا فقيرا كحالنا كلنا في ذلك الحين . بالكاد أحصل على بضعة جنيهات كل أول شهر من وظيفتى . من أجل ذلك أعتذرت لى متحججة بأن أباها لا يوافق ، ثم تركتنى وألقت بنفسها بين ذراعى رجل آخر . وهذا الرجل هو الذى خدمها لما

أعطته كل شئ بينـما كانت تحسـب حسبة خائبة ، هـرب منها فجأة وغـادر مصر مهاجرا ... لعلك تتذكر أن طوفان الهجـرة من مصـر أنما بدأ منذ ذلك الوقت .. وكادت وقتهـا أن تجـن لولا أن أوقعتـنى الصدفـة فى طريقها . لقد قلت لنفسى بعد أن رأيتها فى تلك الحال أنى رجل مستنير ، وأن تفقد فتاة عذريتها بدون زواج فى مجتمع يتفشى فيه الجهل والقمع والحرمان أمر متوقع ولا يستحق التضخيم ، لم ألى كنت مخدوعا بدورى متـعاطفا مع كل المخدوعين حتى أولئك الذين كانوا فيما مضى خادعين .. هكذا كنت أفكر وقتها على أي حال ، ووسـط ظروف ضيـاع رهيبة كنا نعيشها فى ذلك الزمان كما لعلك تتذكر ، هل تتذكر ؟ .. ألم تكن الهزيمة فى داخل كل فرد منا فى الأسـاس ، بينما كان الفقر ينشب أظافره في وجداننا ويضيع عقولنا ؟؟ لقد مـرت تلك الأيام على أى حال ، ولكن بيضها أكتملت فترة حضانته في نفوسنا .. وها هو يفقس هذه الأيام : كائنات زئبقية عدمية شائهة عاجزة .. بالمناسبة ، هل تعرف أننا لم ننجب أطفالا على الرغم من الشوق العارم اليهم ، والاجهـاض الدائم لسبب لم يفسره الطب ، والتـردد العبثى على عيادات الاطباء ؟؟ أجل .. لم ننجب أطفالا عبر زواج تجاوز عمره العشر سنوات ... » .

وسكت سالم ، وتاه بعينيه لحظة ، ثم أشار الى الكلب الذى كان

يجلس في ركن قصى فجرى اليه الكلب ووقف على قائميه الخلفيين ومد ذراعيه الى صدر سالم وجعل ينظر اليه وقد فتح فكيه وتدلدل لسانه الطويل . وأخذ سالم يربت على ظهر الكلب بحنان ، ثم قال مستأنفا الحديث ولكن في نبرة أقل إنخفاضا وأكثر إمتلاء بالهول : « فى كل ليلة كنت أحس بها وأنا راقد ، تنثنى تحت الاغطية وتتلوى ، ثم تزحف فوق بطنى بجلدها الأملس الناعم وتفح على صدرى . وكنت أشعر بأنفاسها الساخنة تلسعنى عند رقبتى ، فأنتفض مذعورا وأفتح عينىّ .. وحينئذ كنت أرى أنيابها المدببة الزرقاء بارزة من فكيها المنفرجين متأهبة لغرز السم في ... »

ورفع سالم ذراعى الكلب حتى كتفه ، وأحتضنه كأنه يلوذ به ، وقال بحسم : « الآن تخلصت منها الى الأبد .. وتخلصت من كل شئ ... بلا عودة على الاطلاق .. »

وأثناء ذلك الحديث ، كانت الريح قد هبت فى الخارج من جديد ، فعربدت وصخبت حتى أخترق زئيرها جدران البيت وبلغ سمعيهما ...

وطلب سالم خمرا ، فقام أمين وسقاه ، ووضع الزجاجة بينهما وجلس وهو يقول : « أخطاء فوق أخطاء ... »

وسأله سالم بعد أن أفرغ الخمر فى جوفه : « هل تقصد أنى أخطأت ... ؟ »

وقام أمين : « بل أن الظروف من حولنا هى التى أخطأت .. وما نحن إلا جزء من تلك الظروف وجزء من خطئها .. »

وقام أمين ، وشرع يتجول وهو يردد مغمغما : « أخطاء فوق أخطاء . وركام متراكم على ركام .. »

وما أن وصل الى مدخل البيت حتى أستدار وأسند ظهره الى الباب وراح يتطلع الى سالم ويقول : « ما أنت وأنا إلا خلاصة مركزة لهذا الركام المتراكم .. الأمل واليأس ، التسامى والضعف ، التمرد والانقياد ، الحلم والحقيقة ، النجاح والفشل ، والصعود والهبوط .. أنا

وأنت حصاد من كل هذه المعانى المتضاربة المتلاطمة لا تسترنا سوى أزياء لا قيمة لها عاجزة دوما عن ستر المعانى ، وأن كانت هذه الازياء من الخداع بحيث أستطاعت في فترات من عمرنا أن تلتصق بجلودنا وتصبغنا بألوان من الوهم . نحن في النهاية مجرد معان ، ومن هنا يجب أن يبدأ البحث والسؤال ... أنا أكره التجريد ولا أميل اليه ، ولكنى بالرغم من تلك الكراهية أجدنى دائما لا أسلم من الوقوع في قبضته الخشنة . ليكن أذن ، فما معنى كل هذا الركام ؟ ما معنى الخلية الأولى ومسيرة التطور وفكرة الخلود الفرعونية وتاريخ بنى إسرائيل المأساوى وصلب المسيح وصلابة محمد وأنتصاره الباهر وثورتى فرنسا وروسيا وبزوغ الحضارة الغربية وانشطار الذرة ؟؟ إن العالم يسير وفق منطق محدد تماما ، وعلى الرغم من ذلك فإننا كثيرا وأبدا لا نكف عن الاختلاف حول هذا المنطق . ولكى يسير هذا العالم فإنه يدوس في طريق الملايين بما ينشره من الأوبئة والحروب - نفاياته التي لابد له من أن يتخلص منها - بل إنه يدوسنا جميعا وبلا استثناء ، لكى يكفل لنفسه الاستمرار ، وطالما أن الحقيقة الوحيدة التى لا يتطرق اليها الشك هى الموت ، فإن هذا العالم لا يمنحنا سوى الوهم مقابل أن نحافظ نحن له على الاستمرار . أرأيت ... أننا لا نستطيع أن نتجنب التجريد . أجل .. فمجموعة كل حيوات البشر الذين عاشوا فوق الأرض كانت وستظل - وعن طريق الوهم - غذاء الحياة بالنسبة إلى هذا العالم الخبيث الشره الى الاستمرار .. ولن تنتهى هذه

اللعبة إلا بانتحار جماعى للبشر ، وفي وقت واحد . إنتحار شامل ودقيق وحاسم شبيــه بذلك الذى فعــله اليهـود فى « الماسادا » .. وقد يحــدث هذا في يـوم قادم من الايام ، وقد لا يحدث على الاطلاق .. لقد كــان المسيح - بالمناسبة - رمــزا لهذا الفهم المحيط المجرد لولا أنه بشــر بملكوت السماء ... أما محمـد فلقد قدم دلالة رائعة على التصـدى والصمود طالما ظل البشر مستمسكيــن بالحيـاة ، مؤكـدا بذلك تعضيده لغـريزة حب البقاء التـى تمـد العـالم بأسـباب الاستمـرار .. »

وكان ســالم يصب خمـرا فى قدحه عندما مشى أمين قباله ، ثم جلس وقال : « هى إذن أخطــاء الظروف التى يخلقــها بشر هم نتــاج للمعانى غيــر المفهومــة أو غيــر المريحة ... ركام من التــاريخ المولد للمعانى المتضاربة التى لا تؤدى الى يقين مريح أو نهائى ... فلا الشــر شر مطلق ولا الخــير دائم ومستقر ، ولذلك يبدو العالم سخيفا - إذا لم نقل خبيثا - فى أغلب الأوقات . وقد حاولت فلسفــة الجـدل أن تبرره وتزخرفه ، وخاصة فى المنهج الذى وضعه هيجل ، بينما إنحطـت المادية الجدلية بهذا التبرير الى درجة التهافت والفجاجة . وفى شبابنا كنا أكثر إنحيازا لـهذا التهافت ، وكنا نستريح حين نجد فيه تفسيرا سهلا ومتعجلا لما نصادفه من مشاكل .. حدث لى ذلك بالفعل كما حدث ويحدث لك . لقد أذاقتــنى زوجتــى قبل أن أطلقها ألوانا من المهانة والاذلال مما لا يطيقه بشر . كنا فقــراء كما ذكرت أنت ، ولكن زوجــتى

– على ، خلاف ما حدث معك – كانت هى الأخرى فقيرة جداً ومتشربة لكل سيئات الجهل وذات تطلعات مرضية . ولقد تصورت أن واجبى نحوها أن أجلب لها الثراء من أى مكان وبكل وسيلة ، فلما أقنعتها بعجزى عن ذلك جنت ، ولم يعصمها من الجنون كل ما قدمته لها من حنان وفهم ... بل كان من الممكن أن نجن نحن الاثنان لو أستمرت العلاقة قائمة بيننا . أرأيت إذن .. لست وحدك على أى حال ، لا ولا هى أختلاف الظروف .. ففى هذا العالم سوء فهم وتفاهم أبديان ... »

وصب سالم مزيدا من الخمر ، وكانت عيناه محتقنتين ، وقال متسائلا : « ولكن ماذا تفعل فى السحالى والضفادع والفئران ؟؟ »

وأجاب أمين قائلا : « أنهم الصديد الذي يتكاثر وسط الركام والاخطاء وسوء الفهم والتفاهم .. ولا مناص من أن نقاومهم حتى لو تأكدنا سلفا من أنتصارهم علينا .. »

قال سالم : « لقد قاومتهم بالفعل .. »

فرد أمين قائلا : « لم ينته ذلك بعد .. لأنه مكتوب أما أن تقضى عليهم أو يقضون هم عليك .. »

وحس سالم بخوف شديد ، ولذعته برودة قاسية .. أما أمين فقد أنصرف عنه الى أفكاره وقال لنفسه : « فى الزمان القديم جحد بنو إسرائيل أنبياءهم وخانوهم ، وبعد أقل من نصف قرن من دعوة محمد عاد المسلمون الى عصبية

الجاهليـة وفحشها ، أما المسيـح فكان قد حمل صليبه ومضى الى حيث لا ندرى .. » .

ولم يشأ أمـين أن يسمع سالم شيئا مما فكر فيه ..

وقال سالم لأمين : « هل تلعب الطاولة .. ؟ »

فابتسم أمين وقال : « لا .. »

فقال سالم : « ولا الدومينو .. ؟ »

فقال أمين : « لا .. »

فقال سالم : « ولا الشطرنج .. ؟ »

فقال أمين : « لا .. »

فقال سالم : « إذن تلعب الورق .. »

فقال أمين : « ولا حتى هذا .. هل نسيت ؟؟ »

عندئذ قال سالم بضجر : « فماذا نفعل إذن الآن .. ؟ »

ثم عمهم قائلا : « لا مفر من الرحيل .. »

فقال أمين : « هناك لعبة طريفة لا تحتاج الى علم أو تدريب . سأقول لك كلمة أو جملة ، وتردد عليها بعفوية

خواطـرك .. موافـق .. ؟ »

قال سالم : « أبداً .. »

فقال أمين : « أسمك .. »

فقال سالم : « سالم الذى لم يسلم .. »

فقال أمين : « مولدك .. »

فقال سالم : « على حافة القبر .. »

فقال أمين : « وطنك .. »

فقال سالم : « حيث ينتشر القلق ، ويترصد الخطر ، ويعشش البوم .. »

فقال أمين : « أحلامك .. »

فقال سالم : « أجهضت كلها .. »

قال أمين : « يقينك .. »

فقال سالم : « ضاع على عتبات الشباب الأول .. »

فقال أمين : « ماتشتاق اليه .. »

فقال سالم : « لم أعد أشتاق من كثرة خيبة الأمل فى كل ما اشتقت اليه .. »

فقال أمين : « الحب .. »

فقال سالم : « لا أراه .. »

فقال أمين : « هـناك رأى يقول : ثمة عالم آخر لا نراه وإن كان شديد القرب منا .. صحـو السمـاء ودفء الشمـس وتفتح الوردة وإبتسـامة الطفـل وجمـال الموسيقـي وسمـو الرقـص ، وأخيرا الفـن الذى يعيـد خلق الحيـاة .. »

فقال سالم : « كلها مسائل نسبية وموقوتة .. حتى الفن .. »

فقال أمين : « هل تعتقد أنك مثالى .. ؟ »

فقال سالم : « كيف أكون مثاليا وقد أرتكبت نفس الاخطاء وتوجتها بالخطأ الأعظم الأخير ؟؟ »

فقال أمين : « من أنت أذن .. ؟ »

فقال سالم : « مستودع مكتظ مظلم ينسج فيه العنكبوت خيـوطه الرمـادية ... تراث مشـوش : سلـوك متنـاقض ، فتات من الافكار ، خنوع وتبريرات ، ومشاعر وطنية ضربت منذ عشر سنوات ولم يعد أحد يلتفت اليها - مجرد الالتفات - الآن .. »

فقال أمين : « ومستقبلك كيف يكون .. ؟ »

فقال سالم : « على بعد أمتار من هنا ، عند حافة البحر ، نزولا الي العدم أو المجهول ... »

وعند هذا الحد من الكلام ، عاد الصمت فاطبق عليهما من جديد ...

وبعد فترة نهض أمين وقال : « سأرسم لك صورة لصفية . صحيح ليست معى أدوات للرسم ولكنى سأرسمها في الهواء وسأشرحها لك . ها

أنا أشد القماش .. هه .. هه .. وأثبته على الحامل ... هه ... هكذا ... ولابد أن أحافظ على مسافة بيننا ... هكذا ، معقول ... الضوء هنا مناسب ، عظيم . ويساعدنى على أن أرى دلالة الارهاق البادية على وجهك ، وهاتين الهالتين حول عينيك وفوق جفونك وتكسرات الجلد بينها ، وهذا الضمور الشحمى المتساقط حتى شفتيك ، والجلد المشدود أسفل ذقنك وفوق رقبتك .. تبدو رجلا مجهدا وخاصة من هذا البريق الحاد الملون بالأسى الصادر من عينيك . البورترية بالمناسبة تاريخ شامل للشخصية علاوة على كونه أحتواء كامل لكل أبعادها ومواصفاتها .. الفنان الحقيقى يجعلك تري في البورترية طريقة مشيك وحركة يديك وانفراج شفتيك عند الحديث . وبالظلال واللمسات ودرجة اللون يحكي لك تاريخك كله مركزا وممتعا .. أني أحاول أن أكون هذا الفنان علاوة على أنى سوف أعكس على صورتك بعضا من ذاتى حتى يكتمل المنطق الفنى ويتناسق في العالم الخاص بالصورة . انتظر . أنتظر .. هذه اللمسة في عينيك سوف تجعل المأساة ترفرف فوق رأسك .. هكذا . وقد يثير هذا التساؤل ، بل قد يبعث على الاستنكار ، هكذا كان الأمر دائما على أي حال .. ولكننى لا أملك إلا أن أرسمك على هذا النحو .. أنى استخدم ألوانا قاتمة ، وألوانا حادة ، أما خلفية الصورة فتبدو مقززة .. ماذا أفعل ، لن أرضى عن نفسى إذا لم ألجأ الى هذا الاختيار . أنا لا أزخرفك وإنما إمنحك حياة عمرها آلاف السنين

التـى أنقضـت ، وربمـا آلاف الســنين التي ستأتى .. أمثـالنا بالمناسبة - أنا وأنت - إنمـاط منقرضة وإن بقيت معانيها .. »

وكـان أمين يدور حول نفسه ، وينــحنى ، ويفرد قامته ثم يميل بها إلي الخلف ، ويشير بيديه ، ويدقق النــظر . وطوال ذلك كله لم ينقطع عن الحديث . وخلال ذلك كله دخــل الزوار الي المعرض الذى أقامــه .. أثنـان ، ثـم ثالث ، ثم رابـع ، ثم خامـس وسـادس .. ثم دخـل بعد ذلك شخـص متعجـرف ، ومـر سريعـا باللوحـات ، ثم قـال لـه : أنـك لا تحتــرم قـوانيــن الظل والضوء ، صـورك تبـدو هزلية ، ونحن فى ظــروف لا تسمـــح بطمـوح فـنى كبيــر .. وبما إنـك موهـوب فارســم شيئا يفرح الـناس . وأراد أمين أن يناقشــه خصوصا في موضـــوع فرح الناس ، ولكــن الرجل المتعجرف أشاح عند ومضى بلا أكتراث . وبعد ذلك غادر الزوار المعـرض:الأول فالثــانى فالـثالث فالرابـع فالخامـس فالسادس .. وبعضهم نظـر إليه وابتسم ابتســامة واهنة متعجلة ، أما الباقون فخرجوا جميـعا دون أن يتطلعــوا اليه كالهــاربين . وأخيــرا بقــى أمين وحـده وسط اللـوحات ، وظل باقيـا ، ولم يغادر مكانه حتى هاجمته سهـام الوحشـة والبـرد ..

وبينمـا كان يضع اللمســات الأخيرة في صـــورة سالم ، ناداه صـوت وقال : « لا أمل لك . ما أنـت إلا مخلـوق مشرد وفـنان بـددت طاقـاتـه . لقد تألـب عليك حلف مكون من نفســاك ومـن الجــوع

ومن الضياع ومن الروح العامة التى تنكر وتصادر المغامرة الفنية .. وليس هذا زمن الفنانين الصعاليك على أى حال .. »

وأنهى أمين الصورة ، ورجع فجلس فى مواجهة سالم من جديد ..

وعاد سالم يسأل أمين : « لا مفر من الرحيل .. وإلا ماذا نفعل الآن ؟؟ »

وقال له أمين : « نسمع موسيقي .. »

فقال سالم : « لا .. »

فقال أمين : « نقرأ كتابا .. »

فقال سالم : « لا جدوى من كل الكتب .. »

فقال أمين : « أذن نأكل .. »

فقال سالم : « فقدت شهيتى للطعام منذ زمن .. »

فقال أمين : « ماذا نفعل إذن .. ؟ »

قال سالم : « ما رأيك في أن نشاهد التليفزيون .. ؟ »

فأجاب أمين : « لا بأس ... »

وأدار جهاز التلفزيون ، وجلسا أمامه لدقائق ، ولكن سالم لم يستطع

التخلص مما بنفسه ، وتصاعد بداخله الضجر وتصاعدت معه مشاعر أخرى ، فقام من جلسته ومشى بهدوء نحو جهاز التليفزيون ، ثم أمسك به بكلتا يديه ، ورفعه عاليا ، ثم هوى به الى الارض . وكان الكلب نائما فاستيقظ على صوت أرتطام جهاز التليفزيون بالارض ، فرفع رأسه قليلا ، ثم نبح مرتين ، وعاد الى النوم ..

وفى تلك الاثناء كان يسمع مطر فى الخارج ، وكان الظلام حالكا وقد أوغل الليل ، وكان سالم يردد عبارته : « لا مفر من الرحيل .. »

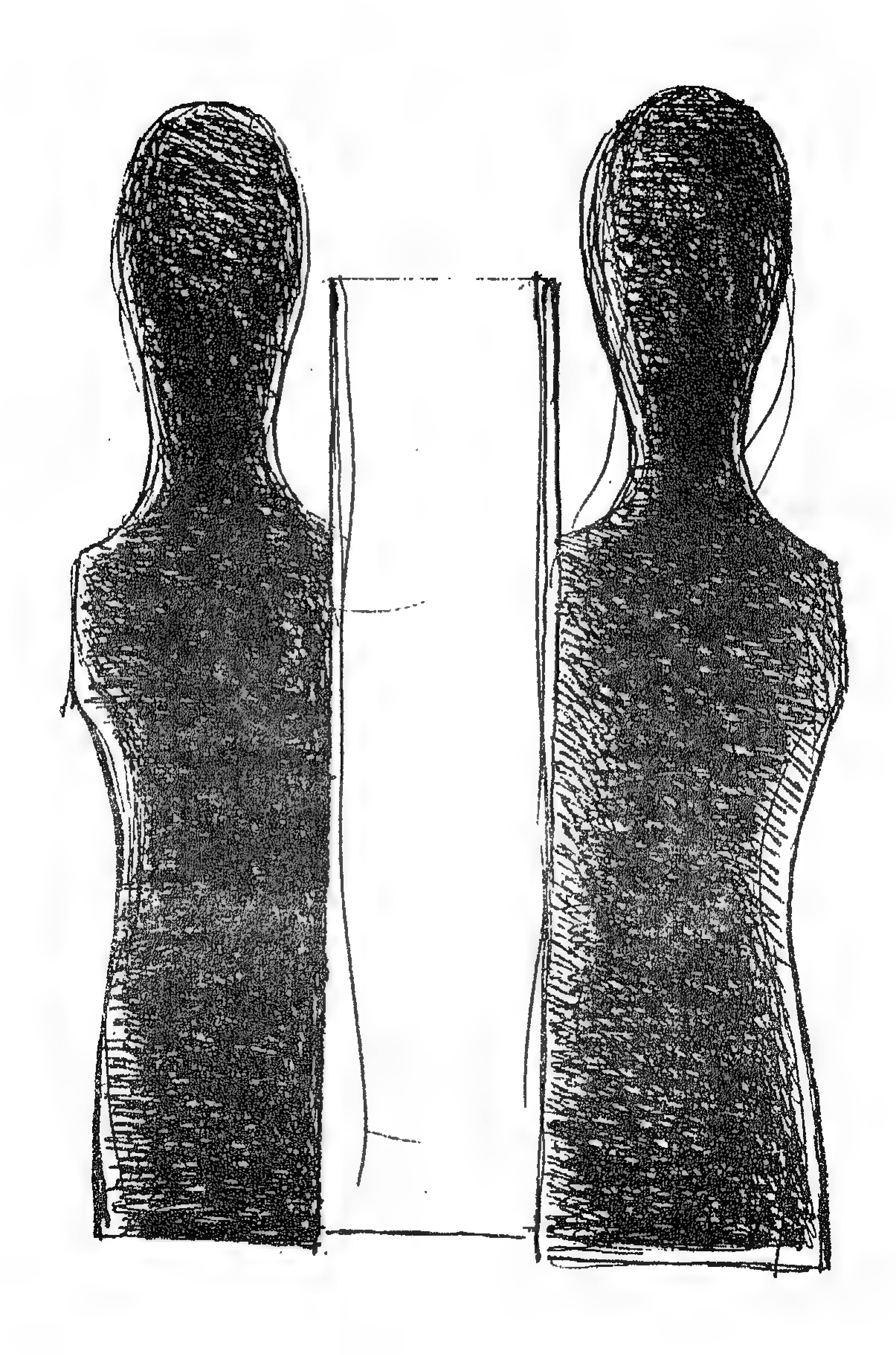
غير أنه وهو فى طريقه الى حيث يجلس أمين ، لمح شبحا يتحرك فى الخارج عبر أحدى النوافذ ، وتملكه خوف وتردد ، ولكنه غادر مكانه واتجه ناحية باب البيت وفتحه ووقف وسط فراغه لا يتقدم . وكان الشبح قد اقترب من الباب ، فتبادل معه حديثا خاطفا لم يتبين منه أمين أى كلمات بسبب صوت المطر ، ثم أغلق الباب سريعا ورجع الى أمين ..

وسأله أمين : « مع من كنت تتحدث ؟ .. »

فأجابه سالم ساهما : « أعرابى يحرس المنطقة .. »

وبعد لحظة مال على أذن أمين وقال : « أنه عسس السحالى والضفادع والفئران .. ثق بما أقول لك . لقد أرسلوه ليجلب لهم الاخبار .. »

ثم دمدم قائلا : « أنهم أتون لا محالة .. »



وغاص في مقعده وراح يرنو الى أمين . وبعد قليل قال : « لم أكن أنوي قتلها .. هل تعرف ؟؟ »

فانتبه أمين وسأله « هل قتلتها ؟؟ »

فأجاب بهدوء « أجل ... »

ثم أختنقت الكلمات في حلقه ، وأرتعشت شفتاه ، وأجهش في البكاء . وأستيقظ الكلب من جديد ورفع رأسه ثم مشى اليه وجلس على الأرض بجواره ، تماما عند موضع قدميه ، وبدأ يخور بصوت ضعيف ..

وقال سالم وسط بكائه « لم أكن أنوي قتلها . بالرغم من خطيئتها الأولى وبالرغم من تلويثها لسمعتي وحياتي هي وأبيها التيس ، وبالرغم من أزدرائها لي واستمرارها في إستخدامي خادما لشهواتها وسادنا لمصالحها .. لم أكن أنوي قتلها . غير أني أصارحك القول أنني بدأت أفكر في ذلك منذ أن بدأت تتحول الى حية . بدأت أحترس منها كلما صرنا وحدنا في مكان مغلق ، وكما قلت لك ضبطها أكثر من مرة متأهبة للدغي ، وفي المرة الأخيرة ، وأثر انفضاض الحفل الذي أقامته ودعت اليه السحالي والضفادع والفئران ، وبينما كنت أتسلل عائدا الى البيت ، رأيتها أمامي مباشرة وكانت مكشرة عن أنيابها . وأقتربت مني وقالت أني أهنت ضيوفها في بيتها ، فأجبتها بأنها هي التي خدعتني ، فاقتربت مني أكثر وقالت أني منحط الأصل وأن أباها صنعني ولولاها

هى ما كنت أساوى شيئا . عندئذ أدركت أنها هذه المرة قد صممت على القضاء النهائى علىّ . فلما رأيتها تزداد أقترابا منى وتفح لى وجهى بهذه الكلمات ، أطبقت بكلتا يدى على عنقها حتى ماتت .. أجل ، فلقد ظللت أطبق علي عنقها حتى تأكدت أنها ماتت . وحين تأكدت ، حاولت أن أغادر البيت لأستقل سيارتى وأرحل ، ولكن أباها التيس أعترض طريقى بقرنيه فضربته على رأسه بقطعة من الحديد ، ومات هو الآخر بكل تأكيد .. »

وكان سالم وهو يحكى كل ذلك ، لا يكف عن البكاء ..

وبعد أن أنتهى من حكايته قال : « الآن لا مفر من الرحيل .. »

وتمتم أمين قائلا : « لم يحصد كلانا . وعلى عتبات الأربعين من عمره ، غير الفشل الوخيم .. »

وقال سالم : « لقد دفعنا الى الأخطاء دفعا ، وحين أخطأنا عوقبنا بأشد ألوان العقاب .. »

ونهض أمين وراح يذرع المكان ويردد : « الآن ماذا يبقى لنا ؟؟ »

وتطلع سالم اليه بعينين مغرورقتين بالدموع وتساءل : « هل ستتخلى عنى ؟ أتتركنى وحدى ؟؟ »

ولم يشأ أمين أن يجيب على الفور ، وعندئذ استبد بسالم رعب شديد ، فقام وجرى اليه ، وناشده متضرعا وقال : « هل ستتركنى وحدى يا أمين ؟؟ أرجوك لا تفعل .. أرجوك .. »

والتفت اليه أمين وتساءل هو الآخر « وماذا يهدى أن أفعل لك ؟؟ »

فبكى سالم بكاءً حارا وقال : « كن معى ... هذا كل ما في الامر .. »

ونظر أمين الى دموعه المتلألئة في عينيه ، وإلى وجهه ، وشاهد من خلال ذلك كله تشكيلا معبرا لمعنى الفناء ..

وقال أمين : « سأبقي معك .. »

فأنحنى عليه سالم بلهفة وراح يحتضنه بشدة ويقبله ، بينما وقف الكلب ينظر اليهما عن قرب . وظل سالم يضغط بجسمه كله معانقا أمين ، وكأنه يريد أن ينفذ الى داخله ويغوص فيه ويتلاشى ..

وكانت الى جوارهما أريكة عريضة ، فناما معا متلاصقين ..

وجاء الكلب ونام أسفل الأريكة ..

وكف المطر عن الهطول في الخارج ..

وكان أمين راقدا فى حضن سالم الذى كان يحوطه بذراعيه متشبثا به ، عندما سمع الصوت يقول له : « لا أمل لك . ما أنت إلا نتاج للهزيمة وسط عالم تستشرى فيه الفوضى ويعم الظلم .. فلا أمل لك . وحتى لو عملت عملا حقيقيا فلا أمل لك ، لأنه مكتوب ألا يرى من هم على شاكلتك ثمرة أعمالهم فى الحياة .. »

وسافر الى أرجاء الدنيا ، وتبعه من كل مكان الجائعون والمنبوذون والحالمون ، وسار بهم حتى دخل القاعة الفخيمة فى مبنى الأمم المتحدة . وكان الجمع حاشدا فى القاعة ، وكل زعماء العالم قد حضروا بلا استثناء ، فألقى كلمة قال فيها : « أنتم جميعا بلا استثناء مخادعون أفاقون وقتلة ولصوص وأعداء للبشر .. » ثم بصق فى وجوه الجميع . وجاءه رجال الصحافة والأعلام ، فأدلى لهم بتصريح قال فيه : « أما أنتم فأنكم أدوات في يد هؤلاء الشياطين .. » ومر وهو خارج تتبعه الجموع بالفنانين والمثقفين فأشار اليهم قائلا : « أما هؤلاء فهم خونة بنى

الانسان فى هذا العصر .. »

وكان الظلام كثيفا وهو يمشى وحده ، وظل ينظر وراءه الى الجموع التى أخذت في التفرق والتناقص .. البعض من التعب والبعض الآخر من الاستسلام ، حتى لم يبق في المسيرة سواه وحده . ولم يتبعه أحد بعد ذلك على الاطلاق ..

وصحا الجو عند الفجر ، وأختفى السحاب من حول قبة السماء ، . وعلى استحياء بزغت خيوط رقيقة من الشمس ..

واستيقظ سالمٓ وأمين ، ونهضا من على الاريكة ، ووقفا كل منهما في مواجهة الآخر وقال سالم : « أريد طعاما .. »

فذهب أمين وأتى بما تبقى من الطعام فجلسا وأكلا . ولم يكن قد تبقى خمر فلم يشربا .. وقال سالم بعد ذلك « لا يمكن أن نبقى هنا أكثر مما بقينا .. »

ثم أستطرد متسائلا : « هل ستأتى معي ؟؟ »

وكان يوجه كلامه لأمين ..

وأجاب أمين قائلا : « أجل .. »

فقا سالم مستدركا : « ولكن .. هل نترك لهم البيت ؟؟ »

فقال أمين : « أتركه .. »

فقال سالم بحدة : « لا .. »

وجرى الى المطبخ ، ثم رجع حاملا وعاءً مليئا بالكيروسين وراح يسكبه فوق الارض وعلي الحوائط والمفروشات . وقال لأمين أثناء ذلك : « كنت أود أن أمنحه هدية لك ، ولكنك ستأتى معى علي أى حال .. »

وأخيراً أشعل سالم النار فاندفعت تلتهم كل شئ ، واصطحب سالم وأمين الكلب معهما وغادرا البيت ..

وفى الخارج وقفا يتطلعان الى البيت وهو يحترق ويتلوض صامتين . ومن علي البعد أتت أصوات متتابعة صادرة من سيارات قادمة نحوهما من عمق الطريق . وقال سالم : « ها قد وصلوا .. »

ونظر أمين في اتجاه مصدر الصوت وقال : « أجل .. »

فقال سالم : « لابد أن نرحل .. »

فقال أمين : « أجل .. لابد .. »

ثم ، ومرة أخيرة ، أستدار وراح ينظر وراءه .. نظرة عميقة شاملة . ولم يأسف على شئ .

وركبا السيارة وتركا الكلب وحده . وأدار سالم المحرك ، وتأهب للانطلاق ..

وأثناء ذلك بدأ أمين يقول هذا الكلام : « مرة دعيت لمشاهدة معرض فنان من جيلنا أسمه داوستاشى . فلما ذهبت شدتنى رسومه بقوة كقوة السحر ، ولكنى لم استطع تحديد أبعاد تلك القوة الساحرة أو تحليل

العناصر المعقدة فى باطنها .. علاقة واحدة فرضت لمسها عليّ من بين الرسوم ، وكانت واضحة مثل هذه الشمس التى تبزغ مع الصباح الوليد . تلك العلاقة التى أطلت عليّ متسلطة علي كل مشاعرى ، كانت علاقة الأسطورة بالمأساة .. فعالم داوستاشى عالم اسطوري محمل بالمأساة . وبعد ذلك بأيام قرأت كلمة كتبها حسين بيكار فى أحدى الجرائد كصدى لزيارته لمعرض داوستاشى ، فلم تغادر رأسى منذ ذلك الحين .. »

وتوقف أمين عن الحديث برهة ، ونظر فى أتجاه البحر العريض التى كانت السيارة منطلقة اليه ، وشاهد الافق على نهاية صفحة الماء اللازوردى ، مجلوا وساطعا ، تصقله أشعة الشمس الصافية الهكر ، ثم واصل حديثه وقال : « تلك الكلمات التى لم تغادر رأسى كانت تقول .. عندما أجد نفسى فى مواجهة راهب بوذى يحرق نفسه على قارعة الطريق ، أفقد القدرة على نطق كلمة لماذا ؟ كلمة غبية بلهاء إذا قيلت في هذا المقام . إذ يغمرنى أقتناع كامل بما يفعل ، دون أن أحاول أن أفسر عقليا تصرف رجل يهب حياته للنار .. »

وكان سالم حين أنتهى أمين من هذا الكلام قد بلغ فى اندفاعه بالسيارة أقصى سرعتها قبل أن تلامس مقدمتها صفحة الماء ، ثم قفز بها فوق الماء ، ثم تخلى عن قيادتها تماما وتركها تغوص فى البحر ..

ولم تستغرق السيارة طويلا وهى تهبط الى العمق . وعلى الشاطئ ، كان الكلب الذى ظل يعدو وراءهما قد توقف ، وراح يرنو الى صفحة الماء

مطأطئا بحزن ..

ووراء الكلب على بعد قريب ، كان البيت قد تقوض تماما وتصاعدت منه ألسنة النيران وسط دخان أسود ، بينما تناثرت من حوله السحالى والضفادع والفئران التى كانت قد غادرت سياراتها وشيكا ، ووقفت عاجزة عن فعل أى شئ .

● نشرت فى طبعة خاصة على نفقة المؤلف عام ١٩٨٢

اللغـــز

بينما أنطلق صوت عبد الحليم حافظ يتغنى مبتهجا بأمجاد الوطن ، حدثنى رجل مكدود النبرة ونحن نحتسى قهوة مرة ، فقال : كنا صحبة تعودت أن تلتقى فى نهاية كل أسبوع بتلك الحانة الصغيرة لتمضية ساعة أو ساعتين نروح فيها عن أنفسنا ، ثم نستغفر الله بعدها بيقين رسخ مع العادة والادمان : أن الله غفور رحيم ، وسعت رحمته جميع المخلوقات لاسيما البؤساء أمثالنا ، وبهذا الأيمان المبتكر المريح ، جرت عادتنا أن نتلاقى وقد أعد كل منا ما جمعه فى يوم أو أمسه من نوادر وطرائف كى يلقيها على مسامعنا مع تغلغل الكحول الرخيص - المتناسب مع أحـوالنا الاقتصادية المتردية - وتصاعـد النشوة الى رؤوسنا ..

وفي تلك الليلة ياسيدى - هكذا تكلم محدثى - حط الغلت علينا كالقدر العاتى ، وربما يشبه النية المبيتة مع سبق الاصرار : جاء أولنا متشكيا من الكآبة ومعلنا التبرم بعمله وبيته ومنتهيا الى التصريح

برغبته العارمة في الانتحار ، ثم أتى ثانينا وهو يلهث ويتصبب عرقا وقال أنه خارج لتوة من الجحيم .. ففى طريقه الينا خاض فى برك ومستنقعات ، وتقافز فوق حفر وتلال ترابية ، ولكمه مخلوق أدمى فى صدره وهو يمشى مندفعا قباله ، وكاد سلك كهربى ضخم مكشوف أن يصعقه بينما كان يحاول تجنب المارة المتزاحمين ، ولم يوفق فى ركوب الأتوبيس فأسلمه ذلك الى استرضاء سائق تاكسى فأركبه منحشرا وسط ثلاثة آخرين ثم سرقه لما أوصله ولم يكتف بذلك وإنما وبخه وسبه حين طالبه ببقية الحساب . وجاء دور ثالث الجماعة ، فجلس شاردا زائغ النظرات ، وحين تكلم حدثنا حديثا مقتضبا وقال : لا يمكنكم أن تتصوروا الهول الذي رأيته اليوم وعشت - رغما عنى - فيه . ولد يضرب أباه على قارعة الطريق - هل تصدقون ؟؟ بينما أمه عيانا بيانا وبلا حياء تكيل للرجل المضروب-زوجها - السباب بأقذع الألفاظ .. والولد والرجل والزوجة ، تدل هيئتهم الفخيمة على أنتمائهم الى فئة المتعلمين ، أو فئة المرتاحين أقتصاديا فى تقدير آخر .. ما هذا الذى يحدث يا حضرات .. ؟ أمور لا يدركها عقل ، نهاية العالم أو يوم القيامة أو الهول الأعظم الذى نسمع عنه ..

قال محدثى ، وصوت عبد الحليم حافظ المبتهج لا يزال يتغنى بجمال وأمجاد الوطن : وهكذا يا سيدى حط الغلت علينا بما يشبه المؤامرة ، وضرب الكدر حصاره على أفئدتنا حتى كدت أيأس من استعطاف

النشوة المرتقبة . وكانت الكئوس قد وضعت أمامنا لتوها عامرة بمائها الذهبى وقطع الثلج المتلألئة وسط أضاءة معتمة ، فقلت لهم مغاليا زحف الضجر وساعيا الى الانفلات من قبضة هموم سرية كانت قد بدأت تتحرش بي :

– وحدوا الله يا جماعة ، أنها الدنيا كما كانت وكما ستظل ، ولله حكمة تخفى علينا ..

وأسرعت أرفع كأسى وألواح به أمام أعينهم قائلا :

– في صحة الفرفشة والبعد عما يثير الغلت ..

تباطأت أيديهم متثاقلة وهى ترفع الكئوس الى مستوى كأسى ، إلا أن واحدا حدجنى فى نفس اللحظة بنظرة نارية ، وقال كأنه ينذرنى :

– ولكن منطق هذا العالم قد أختل .. أليس كذلك .. ؟ أعترف ..

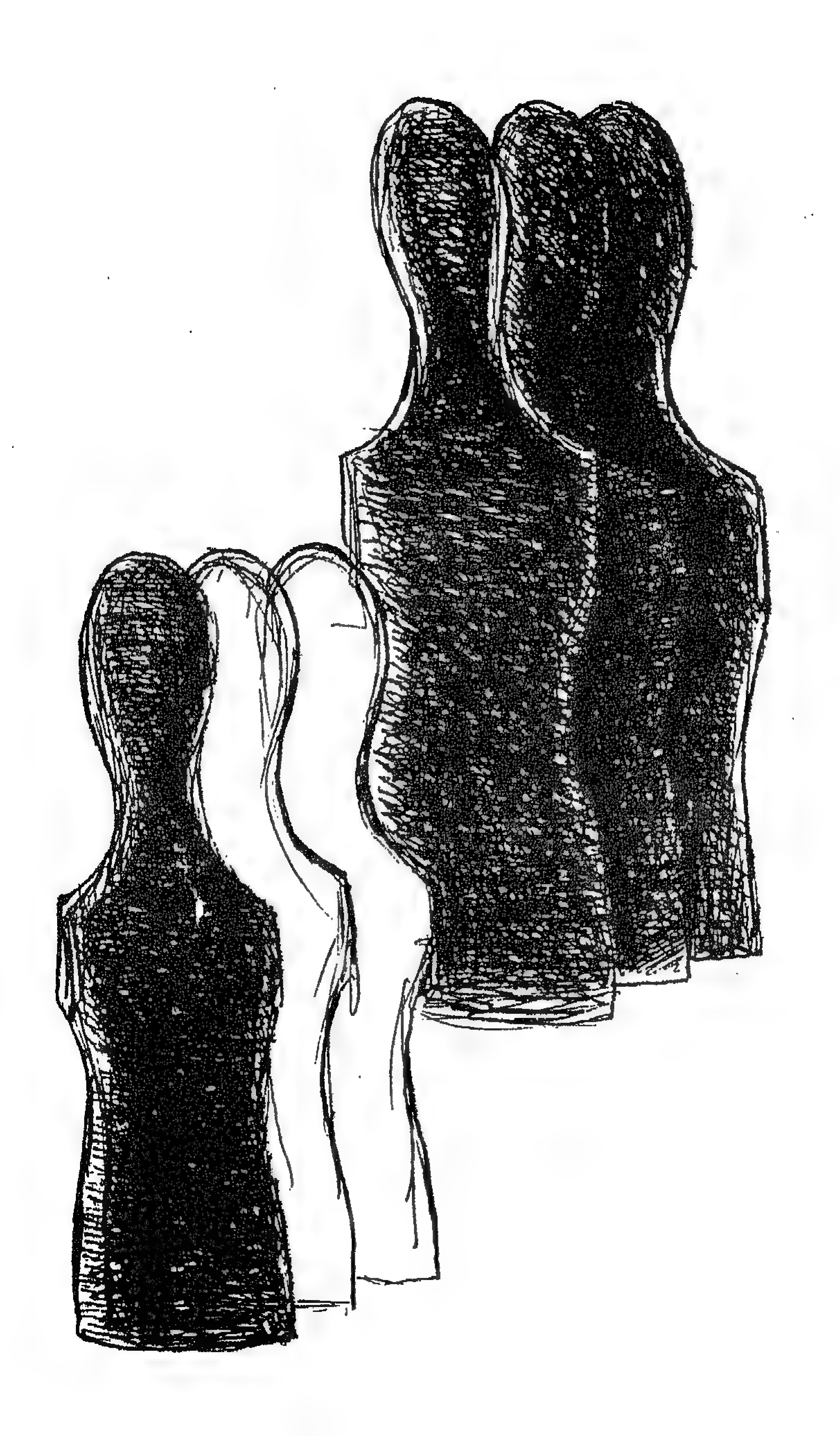
أدهشتنى لهجته الحادة ، المفعمة بالتحدى ، وألجمتنى . غير أنى لم التفت كثيرا لتلك الدهشة أذ صرفنى عنها أحساس مفزع مبهم وخز قلبى وأدار عقلى شبيه بتيار كهربى مباغت منقض ، علي حين راح هو يردد تهديدا موجها الى :

– إياك أن تزعم أن منطق هذا العالم لم يختل .. إياك ..

قال محدثي – وكان صوت عبد الحلم حافظ المتغنى بأمجاد الوطن قد تلاشي وحل محله صوت عبد الوهاب متسائلا : يا وابور قوللى رايح على فين ؟ – هكذا يا سيدى تعرضت جلسة الهروب من الهموم

واستجداء النشوة الوقتية الى الخطر للمرة الثانية ، ولكن الله ستر بحكمته ورحمته الواسعة ، وسرعان ما أفرغت الكئوس وتتابعت بعدما التزمت صمتا منكسرا حيال الجمع وامتنعت عن أى محاولة ، سواء للتهدئة أو للنقاش على حد سواء . ثم لم تلبث الخمر أن فعلت أفاعيلها ، وعندئذ تتالت النوادر والقفشات ، وبدا على وجوه الرفاق الثلاثة نسيان كل ما جاءوا به فى البداية من أحداث بغيضة وأحاديث مقبضة . ولكن ، وفى نفس الوقت ، بدا لى يا سيدى فى المقابل إنى كنت وحدى ضحية سماع تلك الأحداث البغيضة والأحاديث المقبضة .. أذ ظل شبح الكدر الذى أطلقوه من عقالة جاثما عل صدرى كجبل راسخ ..

أما ما حدث بعد ذلك فقد جري سريعا وخاطفا بحيث لم تكن ثمة فرصة متاحة للالمام بمقدماته وأسبابه . لقد أستلفتنا جميعا على لغط وزعيق ، فلما التفتنا الى مصدر اللغط والزعيق شاهدنا واحدا من رواد الحانة المجاورين لنا واقفا فى حالة هياج ممسكا بين أصابعه بورقة مالية لم يلبث أن أخذ في تمزيقها الى قصاصات وهو يوجه كلاما عنتريا وبذيئا الى صاحب الحانة الذى لم يتوقف عن التطلع اليه بابتسام لا مبالى ، وفى نهاية هذا المشهد الذى شد انظارنا ، ملأ الرجل المخمور قبضته بمزق الورقة المالية ثم طوح بها بتحد ، فاذا بها تسقط متناثرة من حول مائدتنا التى كنا نجلس اليها . وقبل أن نستوعب ما جرى كان الرجل المخمور قد غادر الحانة مشيعا بضحكات استهزاء وسيل من السباب ..



لقد كان طبيعيا بعد ذلك ياسيدى - ومنطقيا - أن يهتم أحد ممن بقوا في الحانة بتجميع مزق الورقة المالية التى تناثرت من حولنا ، ولكن أحدا لم يفعل ، وشغل الجميع مرتدين بما كانوا عليه . بدا الأمر غريبا ، مستفزا لى ، خاصة وأن رفاقى بدورهم لم يبدوا أى أكتراث . وإزاء ذلك قررت - تحت ضغط قوة تسلط قاهرة راحت تسخر أرادتى - أن أقدم وحدى على المبادرة . لقد ترددت حينا ، وانتظرت ، وتحولت ببصرى أكثر من مرة بين الموجودين ، وأخيرا أدركت ألا مفر من مواجهة قدرى والاستجابة لمصيرى .. أنحنيت أجمع القصاصات ومزق الورقة المالية ، درت حول المقاعد وزحفت على ركبتى وسط لا مبالاة رواد الحانة واستهزاء رفاقى ، حتى تأكدت من تجميع كافة القصاصات وحتى تأكدت من خلو أرضية الحانة إلا من أعقاب السجاير ، حينئذ عدت بحصيلة ما جمعت يشملنى أحساس غالب بالفوز ، وطرحته فوق حيز الفراغ الضيق المتوفر على سطح المائدة ، ثم استغرقت بجماعى في وصل القصاصات ببعضها .. كانت مهمة شاقة جدا ، بل عسيرة الى درجة الاستحالة ، وبين الحين والآخر كنت أسمع رفاقى - وسط انهماكى الملىء بالاصرار - يتفوهون ببعض كلمات السخرية ، ثم لا يلبثون أن ينصرفوا عنى ، وبدورى لم أكن ألقى بالا اليهم .. كانت عملية ترتيب مزق الورقة المالية قد استحوذت على مداركى وارادتى بقوة مستبدة آسرة لم أعرف أو أفهم سببا لها . وأخيرا ، وبعد

عنـاد ودأب ، وضيـق صدر رهيب بلغ بى حد جنون محقق ، تراصت أمامـى قصاصات الورق متجاورة متحدة متناسقة مكونة شكلا مستطيلا لورقة مالية من فئة عشرة جنيهات ..

عبأت صدرى بشهيق الراحة وأبتسمت مزهوا بنفسى ولنفسى ، ثم التفت الى رفاقى اللاهين عنى وقلت بفرح راعيت أن يحده قدر معقول من الاتزان :

- أنها ورقة من فئة عشرة جنيهات ... تصوروا ...

فتطلعـوا جميعهم الى الشكـل المتراص فوق الحيز الضيق من سطح المائـدة أمامى ، ونظـروا اليه بعيـون بليـدة لا مباليـة ، ثم مطوا شفاههـم في وقت واحد وانصرفوا عنى الى ما أنقطع من حديثهم . أحسسـت بشئ من خيبـة الامـل جعلتنى مثل تلميذ يحاول أن يستعرض مهـاراته أمام مدرس فـظ جهم الوجـه ، فعـدت الى القصاصات المتجمعة فوق سطح المائدة منكسر النظرات ، وفي نفس الـوقت تنبهـت باحساس غامـض لا يخلـو من ريبة الى شئ صغيـر هش محبـوس داخل قبضـة يدى اليسرى ، وبفزع مختلـط بحيـرة وعدم فهـم فتحت كفى اليسرى وأسرعت أستبين ما بداخلـها ، ثـم نظرت ، ويا للهول .. مفاجأة أدهشتنى ، ثم حيرتنى ، ثم أرعبتنى فيما بعد وحتى الآن : وجدت ياسيدى قصـاصة زائدة من قصاصات الورقة المالة التى سبق أن جمعتـها ورتبتـها مستقـرة في كفى المفتـوح ..

قال محدثي - وكان صوت عبد الوهاب المتساءل عن وجهة القطار قد تلاشى مثلما تلاشى من قبل صوت عبد الحليم المتغنى بأمجاد الوطن ، وعم من بعدهما صمت كثيف مقلق - أوكد لك يا سيدى أن القصاصة التى عثرت عليها فى كفى كانت قصاصـة زائدة .. كنت قد بذلت جهدا خارقا فى تجميع المزق والقصاصات ، وبعد أن أكتملت أمام بصرى ورقة عشرة جنيهات قمت بمراجعتها أكثر من مرة ، ولما أكتشفت القصاصة الزائدة التى وجدتها مستقرة في كفى اليسرى أعدت المراجعة مرة ومرات ، وفي كل مرة كنت أتأكد من وجود قصاصة زائدة .. من أين أتت ، لست أدرى . واحد زائد واحد يساوى أثنين ، المنطق يقول هذا ، ومنذ طفولتنا نتعلم ذلك ، فمن أين أتت القصاصة الزائدة ؟؟ والأخطر من كل ذلك أنى حين لجأت لرفاقي داخل الحانة أطلب عونهم فى حل اللغز لم يهتم واحد منهم وتطلعوا الى ثلاثتهم بعيون بليدة تنضح باللا مبالاة ، ثم أنصرفوا عنى الى كئوسهم وثرثراتهم المتندرة .

حكاية التوامـــين

إنك تطالعنى بعينين لا تخفيان الحذر ، لماذا ، أنا لا أنكر شيئا مما حدث .. فقط سوف أقاوم التهمة الموجهة الىّ حتى الموت . فلقد بحثت الامر مرارا بينى وبين نفسي فلم أجد وجها للغرابة في سلوكى ، هه .. أتسمعنى ؟؟ وعليك أنت أن تقنعنى بالعكس أن كنت تملك القدرة على الاقناع .

كل ما حدث أننى طلبت منهم ألا يقفوا فى طريقى ، هكذا ببساطة . وأنا بهذه المناسبة أطالبك بدورى أن تعمل على أجابة طلبى ، بل أنى أحملك مسئولية كل ما سوف يقع من أخطار فيما لو أستمر هذا الوضع على ما هو عليه .

غير أنك زميلٌ فى المهنة ، ولأن الزمالة توجب التعاون . فسوف أساعدك في مهمتك .. ما أكثر ما أرهقتنى أنا أيضا تلك المهام الشاقة ، يا لها من مهنة كئيبة . إن رفضى لتهمتهم على أية حال لا

يستتبع بالضرورة الامتناع عن الرد على أسئلتك ..

الزمن الضائع

لا أذكر خلاف أنى كنت طفلا مثل سائر الأطفال ، ثم صبيا حزينا لفترة محددة . ودعت الحزن من زمن بعيد ، ما جدوى الحزن ؟؟ وكان أبى وأمى على خلاف دائم ، كعادة كل الآباء والامهات . نعم ؟؟ لا .. أنت لم تعش الحياة بما يكفى علي ما يبدو ، جميع الازواج في العالم يتشاجرون ويتقاتلون ، تلك بديهية لا تستحق عناء المجادلة ، ثم أننى عندما كبرت خضت تجربة مع أنثى مخادعة ، كلهن بالمناسبة مخادعات ، وأعانتنى التجربة على تعميق رؤيتى ، فانصرفت عن الجنس الآخر تماما ، بل وانصرفت عن مجرد التفكير فيه بصورة قاطعة . لا صدقنى ، ليس للمرأة عندي تلك الأهمية التى يخلعها عليها الآخرون ، لماذا ؟؟ هه .. لا تستحق ، حقيقة لا تستحق . شكرا ، لست مجهدا ، أشكرك ..

ولا أذكر خلاف ذلك الا أنى كنت أقرأ كثيرا فى أول شبابى ، وأقرضُ الشعر ، وأحلم أن يجاور أسمى يوما أسماء فرويد ولامبروزو ويونج . غير أنى تعثرت فى الدراسة ، وتخرجت بشق الأنفس . لأعمل في تلك المهنة الكئيبة . أنى أمقتها ، هل تحبها أنت ؟؟ حقيقة هل تحبها أنت ؟؟ لقد خدعنا بلا شك .

آه ، الأصدقاء .. ؟ لا ، ليس لى ، ولم يكن . أنهم - كما تعرف - منافقون نفعيون .

المــرأة

عندما دخلت حجرة الكشف كانت تجلس الى جوار زوجها في صمت يدفع الي التوتر والخوف . هيئتها كانت منفرة تثير الازعاج .. مشعثة الشعر ، ترتدى ملبسها في أهمال ، ووجهها مكفهر تشوبه زرقة ، الغريب أننى خلال حديثى معها - ورغم نبرتها المقتضبة الجافة - لمحت فيها مسحة من الجمال كادت أن تصعقنى . وعندما همس الممرض في أذنى قائلا أن الرجل هو موضوع الحالة وليست هى ، دهشت كثيرا وارتفعت حدة توترى وانزعاجى .

كانت هى التى تكلمت فى البداية ..

- ما الحكاية .. ؟

- غاب نحو شهر عن البيت ، وحينما عاد راح يثرثر بأحاديث أقنعتنى أنه فقد عقله ..

- هل تذكرين شيئا من تلك الأحاديث .. ؟ مثال واحد عل الأقل ..

- أشياء خرافية لا تعقل . كان يتكلم عن غابة ، ورحلة قام بها ، ودليل محتال ، ومؤن وذخيرة .. أشياء غير معقولة ..

– وهل عرفت المكان الذى كان مختفيا فيه طيلة تلك الفترة .. ؟

– لم أترك بابا الا وطرقته .. بلا جدوى ..

– وأقاربه .. ؟

– بحثوا معى فترة قصيرة ، وبلا حماس ..

– وأصدقاؤه .. ؟

– عبروا لى عن تعاطفهم معى ..

– أين ذهب أذن طوال الشهر ؟؟

– أسأله ..

– هل يمكن أن تذكرى لى شيئا عن حالته بعد رجوعه .. ؟

– كان ممزق الثياب ، متسخا وجائعا ...

– أقصد بعد ذلك ..

– لا شئ أكثر مما ذكرته لك سلفا ، ثم الاخلاد الى الصمت لفترات طويلة .. واليوم صباحاً لمحته يحزم متاعه وسمعته يصرح باعتزامه الرحيل ..

– الى أين .. ؟

– الى الغابة ..

أحسست بها تدفعنى دفعا الى متاهة قاتلة . أخذت حذرى منها . ثمة مؤامرة تحاك ضدى بلا شك ، هذا احتمال وارد الآن بقوة وألحاح .

ومع ذلك لم ألحج في تجنب شراستها وكرهها لي . عندما سألتها إن كانت لديها متاعب في البيت كشرت عن أنيابها وأجابتني في بغضاء :

- هل نحن في محكمة يا دكتور ؟؟ أنا أيضا لي متاعبي التي تنهد تحت وطأتها الجبال . أيمكنك أنت أن تدرك مدى شقاء الآخرين ؟؟

الرجـــــل

ظل مطرقا معظم الوقت ، حتى في اللحظات التي تبادل معي فيها الحديث ، وعلى صفحة وجهه سطع حزن سماوي . الا أنه سدد اليّ نظراته في مرة ، فتواصلنا بجنون وتهتكت بيننا أسرار رهيبة .

ولكن لا تظن أنني وثقت به .. لقد كنت حذرا طوال الوقت ومنتبها بكليتي . أكرر لك أن ثمة أحتمالا في وجود مؤامرة منذ البداية وحتى النهاية ..

- أخطأت إذ أودعت الذخيرة والمؤن في حوذة الدليل .. كان محتالا لئيما ، ولقد تعمد أن يضللني حتى لا أصل أبدا ، أو على الأقل لكي أصل متأخرا بعد فوات الأوان . كان قد وضع حساباته بدقة : في الغابة ، لا سيادة الا له ..

ولماذا . الغابة ؟؟

سألته متهدجا .

- وهل هناك مكان آخر ؟؟

أزدردت لعابي وعدت أسأله :

- وهل .. وصلت الى هدفك ؟؟

- نجحت في الوصول وحدى . ولكن الوحوش كانت أسبق منى ..

- الوحوش ؟؟

- أفترسته تماما . لم أرمنه غير جثة شوهاء ..

- من ؟؟

- أنت تعرفه .. طالما بحثت عنه ، طالما أرقت وشقيت بسببه ..

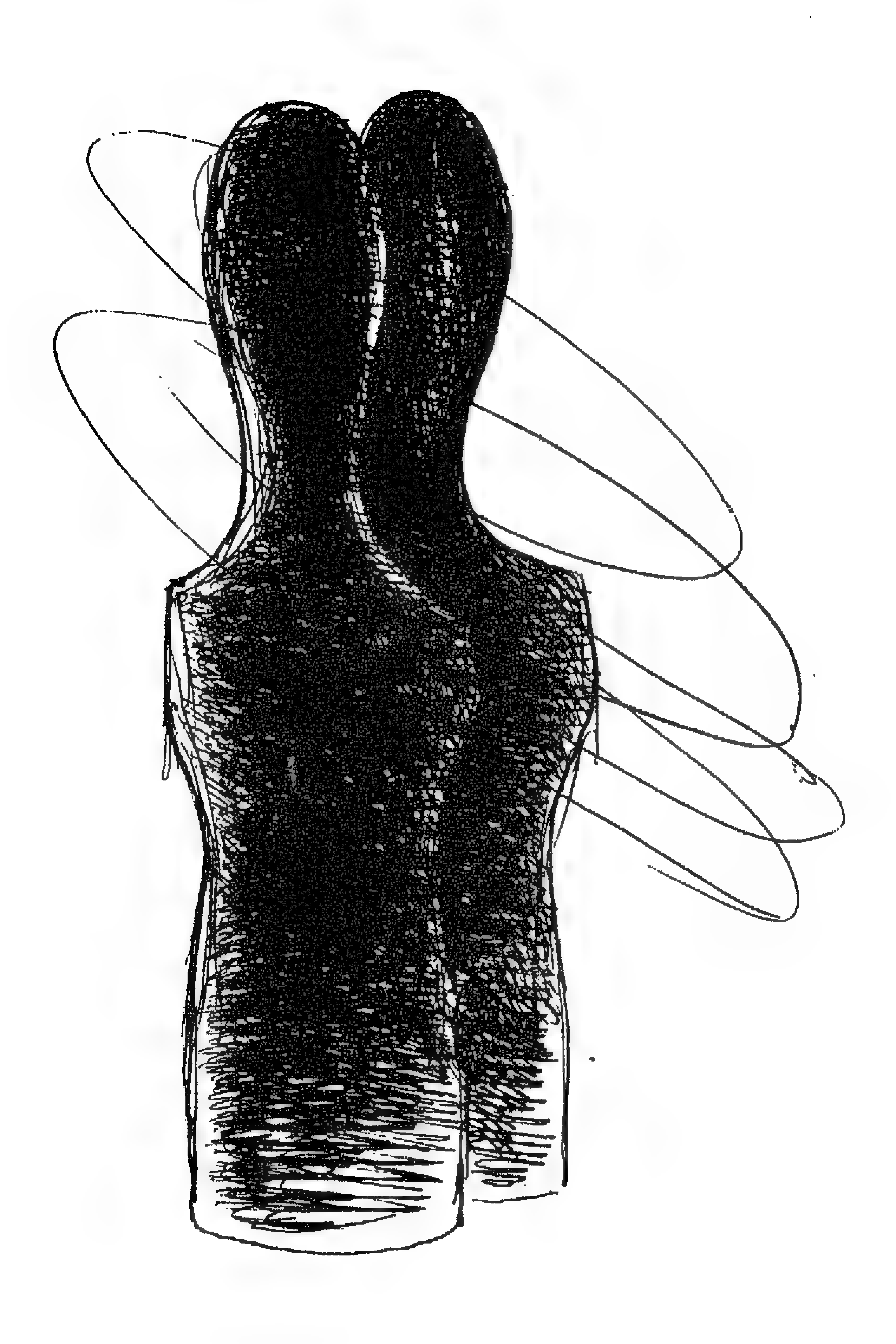
- بل لا أفهم من كلامك أى شئ . قل لي .. من ؟؟

لحظتها انتفضت بعنف ، أمسكته من كتفيه ورحت أهزه بشدة . ولاحظت أن الممرض ينظر الى مشدوها فى حين وخزتنى المرأة بنظرة هازئة . ولم أكن أتوقع أن يصدق الرجل الى هذا الحد .. كم كان صادقاً ، وهادئا وهو يقول :

- أهكذا تنسي توأمك الذى كثيرا ما حلمت بالعثور عليه ؟؟

وسريعا سريعا أحكمت أغلاق صدرى وأطبقت فمى ، وأنصرفت من حجرة الكشف . كانت مطارق عنيفة تهوى فوق رأسى بينما صدرى يحترق ، وكان لابد من استنباط حل للمعضلة : أذ كيف أنكشف السر للرجل على هذا النحو ، وبمثل تلك السهولة ؟؟

ألم أقل لك أنها كانت مؤامرة ؟؟



الواقعة

فى طريقي بعد أن غادرت حجرة الكشف قابلنى . قال بعد أن حيانى أنهـا مناسبة يدعـونى فيهـا الى حفل زواجه . هنأته فقال متندرا :

- لعل هذا المكان هو أنسب الأماكن لتقديم التهنئة بالزواج ..

استخدمت أقصى ما في الطاقة لكى أضغط على نفسى وأقول :

- لا تكن متشائما الى هذا الحد ..

فقهقه ضاحكا وسألنى :

- لم لم تتزوج أذن حتى الآن .. ؟

ولم أجد ما أجيبه به ، كنت عاجزا تماما . تلعثمت . أسرع هو ينوب عنى فى الرد :

- لعلك لم تعثر على توأمك بعد ..

ماذا تنتظر بعد كل ذلك الاستفزاز ، هه ؟؟ هكذا ، وفي ثوان ، أصبح سرى مباحا ومضغة في الافواه . وعلاوة على ذلك كان توأمى قد سقط صريعا وسط الأحراش . كل ما فعلته بعد ذلك كان منطقيا تماما : هجمت عليه ، أطبقت علي عنقه بكلتا يدى ، انتشر الهرج في المستشفي ، تدافعوا نحوى كالسيل ، قاومتـهم ، أحاطـونى بسواعد من الصلب .

ولا أحد حاول أن يسألنى ، أنى أعرفهم : حراس السجن وزبانية الجحيم . كانت شلالات من الدماء الحارة تتدفق داخل رأسى ولا أحد حاول أن يسألنى ، أن يحنو على . لا أحد . فقط ، رمونى بتلك التهمة الباطلة .

وتصور أنت مدى تشابك موقفى وتعقده : كان السر قد ذاع وانتشر ، فى حين أنى لم أكن قد واريت بعد جثة توأمى التراب . وكان الوقت لا يسعفنى وهم يحيطون بى . أخذ يجرى في جنون ، في جنون ، فى جنون ، والجدران تنقض على ، تندفع نحوى ، تظل تضيق علىّ ، تضيق علىّ .

عندئذ صرخت : لا يقف أحد فى طريقى والا هلك ، أن جثة توأمى هناك ، في الغابة هناك ، شوهاء تأتى على ما تبقى منها الذئاب والضباع . أخبرنى أذن : ما وجه الغرابة في هذا السلوك ؟؟ هه ؟؟ ما وجه الغرابة فى هذا السلوك ؟؟

تحــذير

أرجو أن تعمل على أطلاق سراحى فورا وبلا تأخير ، أنى أحملك مسئولية ما سوف يقع من أخطار ، وسوف أقاوم تهمتكم حتى الموت ، حتى الموت .

الكـــلب

تظن أنك قد نلت منى وأذللتنى ، أليس كذلك .. ؟ هراء . واهم أنت كما توهم غيرك . وحين تسمع حكايتى سيتبدل أمرك ، وتختلط حساباتك ، فتقع فريسة للحسرة والقنوط ..

أجل يا محترم ، ولن تجديك قوتك وسلطتك .. لا ولا بطشك ورهبتك ، حين تقرأ هذا الكلام فتفجأ ، فيطير منك اللب ، ثم يخذلك الرشاد ..

ويزين لك خيالك المعوج يا محترم إنك قد قهرتنى .. زرعت فى قلبي اليأس والخراب ، فتركتنى حطاما بعد أن هزمتنى وكشفت ضعفى أمام أمة السائلين ، ولكن هيهات ...

هزمتنى حقا ، أنى أعترف . وأعترف أيضا أنى سمعت من حولك ضحكات الأعوان منى وسخريات المستهزئين بى .. ولابد لهم أن يفعلوا ذلك .. أليسو مفتونين بك .. ؟ مخدوعين في أمرك .. ؟ خائفين منك

ومن سطوتك ومما تستطيع ؟؟ فى قلوبهم مرض ، وعقولهم حشوتها أنت بالضلال .. فبئس المولى وبئس النصير ..

مع ذلك أعترف لك . ولهم جميعا ، أنك قد هزمتنى .. لكى أرضيك أولا ، ولكى أثبت لك شجاعتى ضمنا - دلنى بالمناسبة على من يعترف بالحقيقة ممن يحيطون بك - ثم لكى أمهد السبيل الى صدمك وسحقك والقضاء عليك ، حين تفجأ بما قد وصلت اليه في مقاومتى لك وعلوى على انتصارك الرخيص ..

غـير أنى ، قبل أن أسوق اليك مفاجأتى التى سوف تزلزلك من القاع ، ولكى أذلك بدورى من خلال صراحتى - التى لا يملك مثلها أو يقدر عليها أحد ممن يحيطون بك - سأضع بين يديك أولا كل ما قد جرى لى منذ تركتنى - يا محترم - مهزوما ومهدم النفس ونهبا لعوامل اليأس والضيـاع . ها أنا قد بدأت أعترافى ، فاسمع وأنتشى يا كبير المقام ..

***

فأول ما عرفِ أهل بيتى بعركتى معك وانتصارك علىّ ، أقاموا الدنيا ولم يقعدوها بعد .. ليس غضبا عليك من أجلى بالقطع ، ولا تضامنا معى فيما أصابنى على يديك من ظلم ، إنما لوما وتقريعا لى ، بل وعقوبات أيضا أخذت تتواتر منهم يوما بعد يوم ..

وأول ما فعلوه بعد أن بلغتهم الأخبار ، أنهم عقدوا الاجتماعات

الطارئة ، وأرسلوا الرسل والمبعوثين الى فروع البيت وبطون العائلة .. فاحتشد الأقارب والاصهار ، ولم ينفضوا من بعد ..

وقال أبى أنى ولد عاق ، وأن لم يندهش حين بلغته الأخبار ، لأنه - بعد أن يئس من طاعتى له - كان يتوقع لى مثل ذلك المصير . ثم ندبت أمى حظها العاثر فى - وفى أشياء أخرى حسبما تقتضى المناسبة - وأرسلت نحيبها يطوق البيت ومن فيه ، فأشاع من حولى شؤما كذلك الذي يشيعه نعيق البوم . أما زوجتى ، فقد أعلنت انفصالهاعنى يا مبجل ، استجابة لتحريض أمها النكود وأبيها « الامعة » الدهل ..

أفرأيت أذن يا كبيرا بين الناس ، كم بلغ تأثيرك عليهم والى أى مدى يصل أجلالهم لك ؟؟

***

ولقد أطبقت على العزلة الموحشة ، فجريت مستجيرا أنشد التضامن عند الأصدقاء . غير أنى يا حكيم القوم ، كنت لم أزل غافلا عن حكمتك التى أحاطت بالجميع ، وفكرك الجبار الذي تسلل وغزا كل العقول ، اضافة الى تعليماتك الحميمة التى أرعشت - ولا تزال - ترعش - القلوب . لقد وجدت الجميع ما بين خاضعين لك ، أو هيابين منك ، أو مؤثرين السلامة فى حماية الصمت والبعد عن التورط فيما لا تحمد عقباه . أعتذر المهذبون - لعلك تسميهم الجبناء - عن مقابلتى ، أما الباقون من تلاميذك النابهين ، فقد أنفجروا فى .. لكما وركلا

وسيابا في أحسن الحالات . وأنكر الجميع على الاطلاق - وفى وجهى - أية صلة تربطهم بى ، سواء على مستوى التعارف أو على مستوى الصداقة ، أو حتى على المستوى الانسانى .. ولقد خرج من بينهم - بالرغم من أرهابك وجبروتك - ناصح أمين . سمعته بعد أن شاهدت ملامح وجهه المربد يقول لي : « اسمع .. لقد فات أوان أصلاح حالك ، فلن يجدى معك بالتالى النصح . لقـد تحديته - يقصدك أنت بالطبع - ووقفت فى وجهه مخالفا لاجماع أهل المشورة والرأى . وبالرغم مما فى ذلك من خطورة تصل الى حد الجنون ، فلقد أضفت الى تحديك له - ذلك الأمر الجلل - هزيمتك أمامه .. وهو أمر كنا نعرف سلفا أنه مكتوب لك .. فغـادر عالمنا هذا على الفور ولا تعد اليه ، فليس فيه لك من بعد .. أب أو أخ أو صديق .. »

يا لك من شيطان . الا أنى لم أعرف لماذا ، لا ولا أتذكر كيف ، فهمت ساعتها من حديث ذلك الناصح الامين ، أنه لو قدر لى مثلا - مثلا على سبيل المثال لا أكثر ولا أقل - ألا أنزم أمامك كما نزمت ، لأصبح لى فيما بينهم شأن غير ذلك الشأن الذى صرت اليه ..

***

ها أنا ذا ، يا منتصر ، قد أعترفت لك .. لماذا المكابرة ... ؟ إن كل ما رويت لك الآن قد حدث بالفعل ، وأكثر من ذلك يبدو طغيانك وتسلطك وقد تمكنا من الدنيا بأسرها .. حتى أن الطقس بدوره قد

استجاب لغضبك عليّ يوم أن وجدتني اثر هزيمتي ، وحيدا منبوذا مشردا ، فإذا بالبرق يلمع من فوقي فترعد السماء وتمتلئ الارض بسيول الامطار .. ولم يكن لي ساعتها زوجة أحتمي بدفء صدرها ، ولا بيت أختبئ فيه . ولا صديق ألجأ اليه ..

ولكن ، يالرحمة الله . وسعت كل المخلوقات حتى المارقين المخبولين من أمثالي . فلقد أضاء الله ذهني المتعب من هول أختلاط الافكار مع لمعة البرق فوق رأسي وأمام عينيّ ، ورج الرعد صدري المستكين الى شجنه الراكد ، على حين أغتسلت روحي بماء السماء القدسي المنهمر . فهل تعرف يا واثقا من وهمه كيف لمست وتر الحقيقة المرهف حينذاك ، فإذا بصدى النغم الأصيل يتردد من حولي كالأناشيد ؟؟

إنك لن تعرف على وجه اليقين ، أبدا لن تعرف . فمثلك لا يرى الحق أبدا ، ومثلك لا يكشف له البرق والرعد والمطر عن اسرار الطبيعة القدسية ، ومثلك أخيرا تتجمع انتصاراته من حوله فتصبح لكثرتها أشواكا وخناجر سرعان ما تنقض عليه وتدميه . انك لن تفهم بالقطع ، ولأنك لن تفهم ، فسوف تفشل في تفادي قدرك المأساوي ..

دعني أخيرا أقول لك مالم يقله أحد في حضرتك من قبل : ما أنت الا جبان خائف مذعور ، والا فلم ألبت الدنيا كلها عليّ حين تحديتك ، ولماذا حشدت كل قواك في مواجهتي .. أنا الرجل المندفع البسيط كل البساطة العادي تماما ؟؟ هذا السؤال هو بعينه ما سطع

برأسى ساعة البرق والرعد والمطر .. وعندها إنما وقعت المعجزة ...
أجل ، المعجزة .. ألم أقل لك من قبل أنى أدخر لك مفاجأة .. ؟

***

أظنك الآن تواقا - إلى حد الهوس - لأن تعرف منى خبر تلك المعجزة . بالرغم من جاهك وسلطانك وزبانيتك .. أصبح أنا وحدى الآن من يمسك بخناقك ، يشل حركتك .. يعد عليك أنفاسك . . فاسمع أذن ، فليس من طبعى - إنما من طبعك أنت - تعذيب البشر ..

لقد نصرنى عليك وآزرنى : كلب ، هذا هو العنوان ..

وإياك أن تضحك وتستلقى على قفاك ، محاولا أن تهرب من غمك وغمتك . إياك وأصبر ، فإنى مصر على أن أحافظ لك على ذلك الغم وتلك الغمة ، وإلى الأبد ..

أجل ، كلب .. آزرنى وقت محنتى فنصرنى . وكنت أمشى وحدى حزينا وشقيا ومهجورا تحت سيل المطر ، فشاهدته .. بل قل صحيحا : قابلته . وكنت حين قابلته قد بدأت أستطعم مذاقا من العزم والصمود وأن بقيت حزينا بفعل الهجر . ما قيمة الانسان - بالمناسبة - بعيدا عن التضامن الأخوى ؟؟ فلما قابلته ، عرفت معنى التضامن ونبله وعظمته ... عرفته على يد كلب ..

كان الطريق الذى سرت فيه مظلما وموحشا وموحلا . وكانت خطواتى فوقه ثقيلة بطيئة متعثرة . وفجأة ، وعلى هدى من شريط ضوء كاب ، رأيته وحده متجها الىّ . لم أكن أنوى وقتها أن ألقى عليه السلام - يالغباء البشر وجحودهم - لا ولا كنت أفكر في مجرد الالتفات اليه . غير أنى ، وفى اللحظة التى أوشك أن يحاذينى وهو يتقدم ناحيتى تحت شريط الضوء الذابل ، توقفت . شئ ما من داخلى حرضنى على الوقوف ، توقفت ، ورأيته هو الاخر يتوقف قبالى . وفى وقفتى تلك وجدتنى ، دونا عن ارادتى ، أبعث اليه بنظرات ملؤها الامل والرجاء ، وكأنى كنت أطلب منه العون والغوث . ومرة أخرى أقول : يا لروعة رحمة الله ..

لقد رفع صديقى الكلب رأسه ، وبصبص بذيله ، وراح ينظر الىّ . وفى ثوان التقت عيوننا وسط العتمة وتحت الشعاعات الواهنة لشريط الضوء الكابى ، فتفجرت المعانى . قرأ صديقى الكلب ما بعثت اليه به عيناى ، فأجابتنى عيناه الذكيتان على الفور ، وأرسل الىّ ردا ايجابيا بلا تردد أو أبطاء .. فكم كانت فرحتى حتى رقص قلبي بين الضلوع . فهل رأيت يا بليد الحس الى أى حد يزخر العالم بالتعاطف والحب ، حتى لو أنتزع الحب والتعاطف من قلوب البشر جميعا ؟!

لقد ألقيت عليه السلام فور ذلك . أجل ، ألقيت على الكلب

السلام ، بينما كانت رأسى تدور بنشوة الاكتشاف ، وقلبى يعمر بألق البهجة ، وروحى تتجرد تماما من خطل شرائع وعادات البشر . ألقيت على صديقى الكلب السلام ، فهز رأسه ردا بالسلام .. أقسم لك يا أسود القلب أنه قد هز رأسه ردا للسلام . وحين هز رأسه ، فعل ذلك بنبل وأتزان لا تعرفهما فيمن يحيطون بك . بل أكثر من ذلك ، شعت من عينيه معان هائلة لايمان صلب ..

أراد الكلب أيها الغارق في خيلائه أن يهون عليّ بلواى .. يواسينى ويطمئننى الى أن العالم لا يزال به خير باق ..

ولقد أطمأننت ..

بعدها ، مشى كل منا فى طريقه وقد تبدل حال العالم فى نفسى ويقينى وأستقرت بأعماقى تفاعلات عزم وأصرار ..

***

تلك يا مبجل ، مفاجأتى لك . فحين تحديتك ، كنت مجرد مخلوق تحركه نوازع الفطرة تجاه ما تمثله أنت من الشر . أما الآن ، وبعد أن أقنعنى صديقي الكلب أن العالم لا يزال يتضمن أمورا تعين على البقاء ، فلقد أضفت الى نوازع الفطرة : الفهم والثقة والعزم الذى لا يلين ..

اليك قرارى الذى أبدا لم تتوقعه : أنى لن أتردد - منذ الآن وبعد اليوم - فى تصعيد مقاومتى لك .

الهجـــــر

١

وقف يلتقط أنفاسه ويمسح حبات العرق التى تكاثرت فوق وجهه نتيجة لارهاق المشى الطويل . أخيرا وصل . وتعاظمت البناية الضخمة السامقة أمام ناظريه وهى تقف مهيبة ، بالمعدن الفضى الذى يكسوها والزجاج الذى تنعكس عليه أشعة الشمس المتوهجة . قال لنفسه بسرور : أخيرا وصلت ، وسوف أقابل صديقى وأتحدث اليه حديثا مستفيضا وأسر اليه بشجونى وأتخلص من وحدتى ..

تقدم حتى بلغ البوابة ذات الاعمدة الرخامية المخروطية مربعة الشكل ، توقف أمام الباب الزجاجى ، وهم بدفعه الى الداخل ، ولكن الباب فتح تلقائيا قبل أن تصل اليه يداه . توغل مبهورا الى نهاية بهو صامت نظيف جدرانه من الرخام المصقول . ولاحظ وهو يقطعه أن مساقط الضوء تعزل البهو عن أشعة الشمس بدلا من أن تسمح لها

بالمرور ، فتأمل مصادر الاضاءة الداخلية ووجدها تنشر فى المكان أنارة باردة مكتومة ، وأخذته قشعريرة نتجت عن أحساس مفاجئ بالبرد ..

قال لموظف الاستقبال الذى أستوقفه قرب نهاية البهو :

– جئت لكى أقابل صديقى ..

فتفحصه الموظف ذو الملامح الجامدة ، ثم قال بعد ذلك :

– أنتظر هناك ..

وأشار الى دائرة من المقاعد الجلدية الفخمة توسطت مساحة من أرضية البهو العريض ..

مشى وحيدا الى حيث أشار الموظف ، وكان أثناء ذلك قد بدأ يستشعر – بصورة غير واضحة – نوعا من الاحباط ..

٣

كان يجلس واضعا رأسه بين كفيه حين نادى موظف الاستقبال عليه ، فنهض على عجل وذهب اليه . ناوله الموظف ذو الملامح الجامدة ورقة وهو يقول له بنبرة رتيبة :

– أملأ بيانات هذه الاستمارة ..

أخذته الدهشة وسأل الموظف :

– لماذا .. ؟

أجاب الموظف بالنبرة الباردة الرتيبة نفسها :

- أجراءات ..

- ولكنني جئت لمجرد أن أقابل صديقي ، وهذا كل شئ ..

- أعرف .. ولكنها الاجراءات ..

- ليست لى أية حاجة عندكم .. مجرد الالتقاء بصديقي والجلوس اليه وتبادل المودة بيني وبينه ..

- لا مفر من الاجراءات ..

- لقد مشيت طويلا تحت الهجير لكى أصل إلى هنا ، وقبل ذلك اتخذت قراري بزيارة صديقي تحت وطأة عذاب رهيب وشجن بالغ ، وفى ظرف وحشة قاتلة ..

- كل ذلك لا يدخل فى أختصاصنا .. لا مفر من الاجراءات .. أملأ بيانات الاستمارة أو أنصرف ..

تطلع الى الموظف ذى الملامح الجامدة بعينين حزينتين ، ثم مد يده وتناول الورقة وراح يملأ الخانات الفارغة بالبيانات المطلوبة ، وتنامى فى صدره أثناء ذلك الشعور بالاحباط ...

٣

سلمه موظف الاستقبال الى موظف أخر يشبهه في الملامح ، فأصطحبه الاخير الى مصعد كهربائى ، وسلمه بدوره الى عامل المصعد الذى أدخله ثم أغلق الباب وضغط على الزر ، فارتفع المصعد ثم توقف بالطابق الثانى للبناية . وكل ذلك حدث فى صمت ، ودقة

شديدة ، وبرود ..

في الطابق الثاني تسلمه موظف ثالث ، يشبه الموظف الاول والموظف الثاني ، فاقتاده عبر ممر طويل ملتو ودهاليز عدة متداخلة أكتست جدرانها كلها بالرخام المصقول ، حتى توقف به أمام باب مكتب فخم ، ثم ضغط زرا على يمين الباب فانفتح الباب عل الفور . قال له الموظف الثالث بنبرة الموظف الاول الرتيبة الجامدة نفسها :

– أدخل ..

وتركه وعاد من حيث أتى ..

وقف أمام الباب المفتوح حائرا مترددا فريسة للقنوط . ثم سمع صوتا يناديه :

– تعال ..

تقدم خطوات داخل الحجرة ، راح خلالها يحملق في فرشها الفاخر ويتعجب . وأخيرا وقف أمام شخص لا يختلف عن كل من قابلهم منذ أجتاز بوابة البناية . قال له الرجل الذى كان جالسا خلف مكتب ضخم :

– أجلس ..

شعر بروح آمرة في نبرة صوت الرجل ، ولكنه جلس صامتا صاغرا . أخذ الرجل يقلب في بعض أوراق كانت أمامه ثم بدأ يسأله أسئلة شتى : من أين ، وكيف . ولماذا .. وكانت لهجته أثناء كل الاسئلة رتيبة باردة . تصاعدت في داخله مشاعر عديدة ، ودهش دهشة بالغة . تساءل وقد

بدأ حزنه يتحول الى ألم :

- كل هذه الاسئلة مطلوب أن أجيب عليها قبل أن أقابل صديقي لكى التحدث اليه وأبثه شجونى وأتبادل معه الود ؟؟

أجاب الرجل :

- أجـل ..

فتساءل من جديد :

- وإذا لم أجب .. ؟

رد الرجل بأقتضاب :

- سيكون من المستحيل عندئذ أن تنجز المهمة التى جئت من أجلها ..

أطرق وخبأ نظراته في الارض ، وأجاب على كل الاسئلة التى وجهت اليه . ودون الرجل كل الاجابات ، ثم نهض حاملا أوراقه وأختفى وراء باب جانبى ، وبعد قليل عاد قائلا :

- أجاباتك صحيحة ..

وجلس وهو يكمل :

- سوف تذهب الآن مع موظف مختص لكى تجرى الاختبارات الضرورية : نفسيا وبدنيا وثقافيا وأجتماعيا ، وأخيرا شكليا .. خذ حذرك : أياك أن تستهين بشئ وأنت تجرى كل تلك الاختبارات الضرورية جدا .. كن حريصا ، ودقيقا ، وأقدح ذهنك تماما ، ولا تغلب العواطف

الساذجة .

حينئذ ، وعقب سماعه هذه الارشادات ، شعر بالاحباط يتكاثف بداخله ، وخطر له أن يتراجع ويصرف النظر عن فكرة مقابلة صديقه ، ولكنه أستمسك بالآمال العريضة ومنى نفسه بحرارة اللقاء ، وأذعن ..

٤

تلقفه الموظفون واحدا بعد الآخر ، وصعدوا طابقا فوق طابق ، وعبروا به ممرات ودهاليز رخامية ملتوية ، وأدخلوه حجرات فخمة باردة ، وكانوا كلهم يشبهون موظف الاستقبال ويتكلمون بنبرة جامدة مقتضبة ويطلبون منه بأستمرار شيئا محددا .. الانصياع ..

أخيرا أوصلوه الى حجرة مكتب أكثر فخامة من كل مامر به من حجرات ، أستقبلته فيها فتاة جميلة جدا ، جملت وجهها بزينة عروس ليلة زفافها ، ابتسمت له ورحبت به ، ثم دعته الى الجلوس فوق أريكة ذات كسوة ناعمة ، فجلس شاكرا وجلست هى الى جواره . قالت فور أن جلست :

- أنا سكرتيرة صديقك ..

أغتصب ابتسامة وقال :

- أهلا وسهلا ..

قالت :

- وقد علمت بكل شئ ، كل الاجراءات التى مررت بها قبل أن تصل الى هنا،كل شئ منذ لحظة الاستقبال ، والاجابات صحيحة ، ونتيجة الاختبارات ، والمفروض أن أدخلك الآن لتقابل صديقك ..

وتوقفت عن الكلام لحظة ، فبدا له إنها تمهد لشئ لن يرضى عنه . كان منهكا للغاية ، ممرورا تماما ، فتعلقت عيناه بشفتيها الجميلتين ، وترقب باقى كلامها صامتا وواجما .. أستأنفت الفتاة حديثها وقالت :

- أريدك أولا أن تجيبنى بصراحة : هل ترى فى مقابلة صديقك فائدة تستحق كل ما بذلته من عناء .. ؟

قاوم أعياءه وغالب أنكساره ونطق قائلا :

- أجل ..

سألته بلهجة تخلو من الاقتناع :

- وما هى تلك الفائدة .. ؟

تلعثم وهو يتشبث بالاصرار ويقول :

- الود ..

- وما هو الود .. ؟

- صلة قويـة بين اثنين من البشر ، بصيرة نافذة قوامها الرحمة ، عناق أرواح يعين على مشقة الحياة ويساعد على استمرارها ..

تضاحكت وقالت :

- أنت حالم جدا . وهذا يعرضك للمتاعب ..

ومالت عليه والصمت وجهها بوجهه وأكملت :

- دعك من كل ما تفكر فيه ، وعد الآن فورا قبل فوات الأوان . عد من حيث أتيت وأنتظرنى هناك . سوف آتى اليك وأسقيك من ينبوع متعتى وأخلصك من وحدتك ..

انتفض واقفا وقال :

- لا ، أريد أن أقابل صديقى ، الان وفورا ...

ابتسمت وقالت :

- صديقك هو الذي أوصانى أن أعرض عليك هذا العرض السخى . أنا خادمته وانفذ أوامره ..

قال متحديا :

- أريد أن أسمع هذا الكلام منه هو شخصيا ..

قالت بتحذير لا يخلو من الاستهانة :

- أنك تضيع على نفسك فرصة لا تعوض ..

ركب رأسه وأصر على عناده :

- أريد أن أقابل صديقى الان ، وفورا ..

نهضت ، وسوت ملابسها ، ومشت لتبلغ صديقه بوصوله ..

٥

لم تنقض غير ثوان معدودات اثر ان وضعت الفتاة سماعة التليفون ، وأبلغت صديقه بوصوله،حتى فتح باب جانبى ، وخرج من ورائه شخص سريع الخطوات ، ولما أقترب منه همس فى أذنه معاتبا :

- لماذا جئت .. ؟ الا ترى كم أنا مشغول .. ؟ ولماذا ترفض العرض الذى تقدمت به لك هذه الفتاة الساحرة .. ؟ أكيد أنت مجنون .. أنت مجنون أكيد ..

وظل الشخص الذى خرج من وراء الباب الجانبي للحجرة الواسعة الفخمة يردد ذلك القول مرات ومرات حتى أقنعه نهائيا أنه لن يقابل صديقه الذى تجشم المتاعب والمشاق كى يراه ويفضى اليه بما في نفسه ويبثه شجونه .

فهـرس

رقم الصفحة

للمؤلف

- المهاجر (رواية) ١٩٧٦
- حقيبة خاوية (رواية) : ١٩٨٠
  - جائزة الدولة التشجيعية ١٩٨٢
  - وسام العلوم والفنون طبقة أولى
- حكايتان من زمن التهر (دار الكاتب - بيروت) ١٩٨٠
- يوم تستشرى الأساطير ١٩٩٢

تحت الطبع

- كوميديا العودة (رواية)
- هزل الختام (رواية)
- حديث الضد (مجموعة قصصية)
- ثلاثية المهاجر

تطلب مؤلفات الاستاذ محمود حنفى من مكتبتى دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية

رقم الايداع
٩٢ /١٠١٥٦
الترقيم الدولى ISBN
977 - 5365 - O5 - 8

يوم تستشرى الأساطير



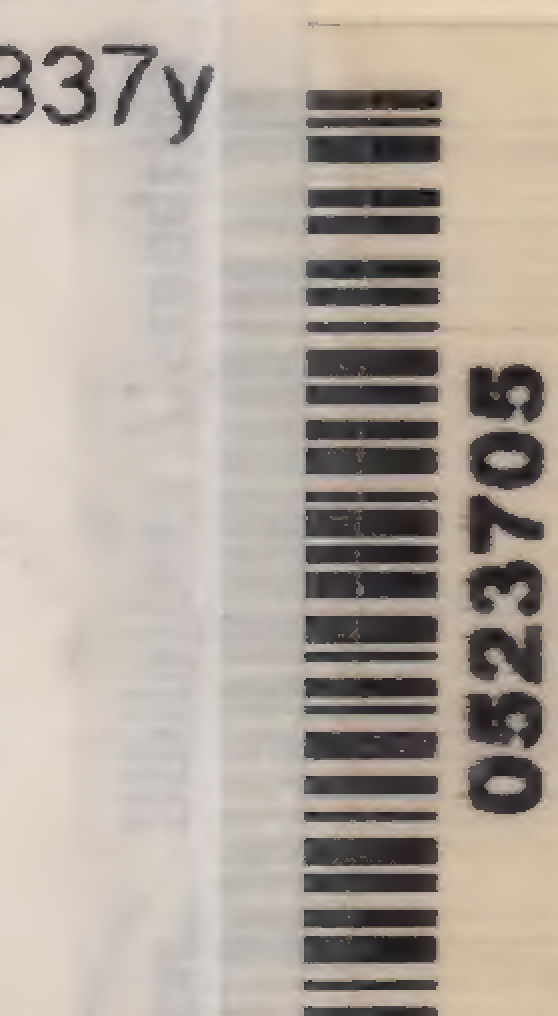
يبدو أن كتاب الرواية الجدد فى مصر قد حققوا كسبا هاما لهذا الفن الجميل . وبعضهم أنطلق من الواقع الى الوهم . وأجرى بين القطبين حركة دائبة دخولا وخروجا ، على نحو يشبه ما فعله بيرانديللو في مسرحياته . فعل هذا محمود حنفى فى روايته . الأخاذة ، كبيرة النضج : « يوم تستشرى الأساطير » .

غير أن محمود حنفى لم يفعل هذا وحسب . لم يفجر أطار الواقعية الصارمة فقط ، وإنما كتب رواية هامة حقا ، من وجهة نظر المضمون ، والصنعة الروائية معا . فهو من ناحية الصنعة ، قد عاد مباشرة الى أسلوب الحكاية البسيط وخيالاته النشطة السريعة الانبثاق ، تلك التى نجدها فى حكايات ألف ليلة وليلة مثلا ، كما انطبع أنطباعا خلاقا بالكتب المقدسة ، وصب روايته فى قالب الأمثولة التى عرفتها أداب القرون الوسطى ، وجعل لها نبرة التحذير والزجر الشديد التى يستخدمها ذوو الرؤى حين يشعرون حتما عليهم أن يوجهوا رسالة تحذيرية الى بنى الانسان من خطر كبير يوشك أن يحل بهم .

دكتور على الراعى

« الرواية فى الوطن العربى »

دار المستقبل العربى - ١٩٩١



دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والأسكندرية